فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٩﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

أوجس: أوجس الرجل إيجاسًا: أحسّ وأضمرَ (الأقرب).

خيفة: الخيفة: الحالة التي يكون عليها الإنسان من الخوف (الأقرب).

تلقَف: لقف الشيءَ: تناوَله بسرعة (الأقرب).

التفسير: أي لما أحس موسى الخوف أوحى الله إليه أن ليس بداخل هذه الحبال والعصي إلا اللوالب وما شابه ذلك. فاضربها بعصاك بقوة، فتنكسر اللوالب بداخلها وتتوقف هذه عن الحركة. وهكذا سوف تلتهم عصاك حبالهم وثعابينهم التهامًا معنويًّا.. أي ستكشف للناس شعوذتهم وخُدعتهم.

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧١﴾

التفسير: إن قوله تعالى ﴿فأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجّدًا﴾ ملفت للنظر، حيث يبين أن هزيمة السحرة كانت واضحة جدًّا حتى بدا وكأن قوة غيبية قد نـــزعت الأرض من تحت أقدامهم، فخروا ساجدين. وبما أن هزيمتهم قد جعلتهم يوقنون بأن الله تعالى يؤيد موسى بنصره فما لبثوا أن قالوا ﴿آمنّا برب هارون وموسى﴾.

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

من خلاف: قوله تعالى ﴿من خلاف﴾.. "أي إحداهما من جانب والأخرى من جانب آخر" (المفردات). وقد يعني: بسبب مخالفتي.

التفسير: لقد قال فرعون من قبل بكل كبرياء وغطرسة إني سأجمع سحرة هم أكثر حذقًا ومهارة من موسى، ولكن لما خر السحرة على قدمي موسى منهزمين استشاط فرعون غضبًا، وقال لهم إخفاءً للعار الذي لحق به، سوف أعاقبكم الآن لأنكم آمنتم من دون إذني.

كما سبق أن بيّنت أن قوله تعالى ﴿من خلاف﴾ قد يعني أني سأقطع أيديكم وأرجلكم لمخالفتكم أوامري، أو يعني أني سأقطعها من الجهة المخالفة، أي اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ إذ لا يصلح الإنسان بعد ذلك لشيء بل يصبح معوقًا كلية.

قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٣﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٤﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٥﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٦﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٧﴾

التفسير: كان السحرة قبل قليل يتسولون إلى فرعون، أما الآن فقد جعلهم الإيمان شجعانًا حتى إنهم وقفوا في وجه فرعون وقالوا لسنا لنطيعك الآن أبدًا، إنما نطيع أمر الله تعالى فقط. فغاية ما يمكن أن تفعله هو أن تقضي على حياتنا الدنيا. فافعَلْ ما بدا لك، فلا نبالي بذلك أبدًا. إننا مسرورون بأن الله تعالى قد هدانا بفضله إلى الحق، ولن تقدر قوة في الدنيا على ردنا إلى الكفر ثانية.

الواقع أن من تيسر له الإيمان الكامل هانت عليه مصائب الدنيا ومحنها كلية. هناك واقعة في كتب الحديث تبين لنا حقيقة الإيمان، وكيف أن الدنيا لا تساوي

شيئًا في نظر من تيسر لـــه الإيمان حقًّا. لقد وقع في غزوة أُحد حادث شاع بسببه بين الناس أن النبي ﷺ قد استُشهد. فقامت القيامة في المدينة كلها، وأخذت النساء والولدان في الصراخ والعويل وهم يجرون إلى ميدان المعركة. وكان بين هؤلاء النسوة عجوز عمرها سبعون سنة، قد ضعف بصرها، فكانت لا تقدر على رؤية شيء بعيد، وكانت تعرف أحدًا بصوته إذا ما اقترب منها. وكان النبي ﷺ إذاك راجعًا من ميدان القتال بفضل الله تعالى. وكان معه أنصاريّ يحرسه حراسة خصوصية آخذًا خطام راحلته، وكأنه كان يتفاخر بأننا قد تمكنّا من أن نرجع برسول الله ﷺ من ساحة الحرب حيًّا. وكان أحد إخوة هذا الأنصاري قد استُشهد في المعركة. وكانت هذه العجوز أم هذا الأنصاري. فأبصر بين فوج من النساء والولدان الباكين الصارخين أُمَّه العجوز وهي تحاول أن تسرع الخطى ورجلاها تتخاذلان، إذ كانت شبه كفيفة لا تقدر على رؤية الطريق، وكانت تنظر يمينًا وشمالاً في قلق بالغ. فلما أبصر أمه قال يا رسول الله، أمي، أمي. وكان يريد أن يعزّي رسول الله ﷺ أمه التي قد فقدت ابنها في هذا الشيخوخة والضعف. ففطن النبي ﷺ لما أراده الأنصاري، ولما اقتربت العجوز أمره النبي ﷺ أن يوقف ناقته. ثم قال للعجوز: لقد حزنت لفراق ابنك الذي منحه الله درجة الشهادة، وأدعو الله تعالى أن يلهمك الصبر والسلوان. كان بصرها ضعيفًا فلم تعرف من المعزّي، ولكن الصوت قد حيّرها، إذ كانت تظن أن رسول الله ﷺ قد استُشهد، ولكن الصوت صوته ﷺ. فلما وقع بصرها على وجه النبي ﷺ وعـــرفت أن المعـــزّي هو رسول الله ﷺ نفسه، قالت في جرأة وثبات: ما هذا الحديث عن وفاة ابني، يا رسول الله؟ فما دمتَ حيًّا فكـــل مصيبة بعدك جَلَـــل. أي نحمـــد الله تعالى أنك قد عدتَ إلينا حيًّا، وهذا يكفينا (السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثالث: شأن المرأة الدينارية).

فالحق أننا لو حظينا بوصال الله تعالى وأمسكْنا بأهدابه تعالى نتيجة لإيماننا واستعدادنا للخوضِ في الأخطار بكل أنواعها، فلا يمكن أن نبالي بأشد المصائب هولاً. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة نفسها بقوله مَن وجَد حلاوة الإيمان فلو

قُذف بعد ذلك في النار لكانت أحبَّ إليه من أن يعود في الكفر (البخاري، كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر).

وورد في حديث آخر أن الرجل فيمن قبلكم إذا آمن كان قومه يقطعون رأسه بالمنشار قطعتين، ولكن ما كان هذا يصدّه عن إيمانه (مسند أحمد، مسند البصريين، رقم الحديث ٢٠١٦١).

وتكثر أحداث مماثلة بين صحابة الرسول ﷺ. فمثلاً كان الكافرون يجوِّعون بلالاً ﷺ، ثم يُلقونه على رمال محرقة في الشمس، ويضعون على صدره حجرًا ثقيلاً محرقًا، ثم يأمرون أحدًا منهم أن يركب عليه ويقفز، ثم يقولون لـــه قل أن محمدًا كاذب، وأن اللات ومناة والعزى آلهة حقًّا. فكان لسانه يتدلى من فمه، وكان حلقه يجفّ من شدة العطش، ولكن لم يكن جوابه إلا قوله "أسهد* أن لا إله إلا الله". وعندما كان لا يقوى على قول شيء فكان يكتفي بقوله "أَحد، أَحد".. أي الله أحد (أُسد الغابة في معرفة الصحابة).

فالتاريخ مليء بذكر هذه التضحيات من قِبل الصحابة. وهذه هي الأسوة التي قدمها السحرة أيضًا، فقالوا لفرعون صراحة إننا لسنا لنستمع لقولك الآن، وإنما نستجيب لأمر الله الذي قد أتانا، والذي قد شاهدنا صدقه بأم أعيينا.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

التفسير: أي أننا أوحينا إلى موسى وقلنا لـــه أن يخرج بعبادنا، أي بني إسرائيل، من مصر تحت ستر الليل. وقلنا لـــه أن اضربْ بعصاك البحر واجعلْ لهم فيه طريقًا يابسًا، لكي تعبر بهم البحر من دون أن تخاف مطاردة فرعون أو تخشى الغرق. ثم

* كان بلال ﷺ لا يستطيع نطق الشين *(المترجم)*.

إن فرعون دخل البحر مع جنوده مطاردًا بني إسرائيل، فجاءهم الموج وأغرقهم. وهكذا دفع فرعون قومه إلى الهلاك كما لم ينج منه بنفسه.

يتضح من هذه الآيات أن بني إسرائيل لما هربوا من مصر طاردهم فرعون وجنوده. ولما اقترب بنو إسرائيل من البحر خافوا. فأوحى الله تعالى إلى موسى يطمئنه، وقال اضرب بعصاك البحر. فلما ضربه بالعصا صار طريق في البحر، وبدا البحر كتلال الرمال على حافتي هذا الطريق. فلما مرّوا به أراد فرعون وأصحابه أن يمرّوا وراءهم، ولكن رجع الماء في هذه الأثناء فكانوا من المغرقين.

قد وردت في القرآن الكريم بصدد انحسار ماء البحر كلمتان: ﴿فرَقْنا﴾ و﴿فانفلقَ﴾ (البقرة: ٥١، والشعراء: ٦٤)، وكلاهما تدلان على معنى الانفصال. فيبدو أن ما حصل هو كالآتي: عندما وصل بنو إسرائيل إلى البحر كان ماؤه قد انحسر عن الشواطئ، فعبروه مرورًا باليابسة التي ظهرت نتيجة انحسار البحر. وتُشاهَد هذه الظاهرة عادةً على شاطئ البحر الأحمر الذي مر به بنو إسرائيل. ورد في كتاب "حياة نابليون" أنه لما كان في مصر ذهب لزيارة المكان الذي مر به المصريون بحسب الروايات. وكان الوقت وقت الجزر، فعبر نابليون البحر مع أصحابه إلى الشاطئ الآسيوي للبحر الأحمر. وقضى هناك وقتًا طويلاً في رؤية شتى المناظر. وحين أراد العودة كان الليل قد أسدل ستاره، فضلَّ القوم طريقهم، واشتد الظلام، وجاء المد وأخذت الخيل تغوص في أمواج الماء التي كانت ترتفع باستمرار نتيجة المد، حتى بدأ الماء يمس سروج الخيول، فأيقنوا الهلاك. ولكن نابليون أنقذ نفسه وأصحابه من هذه الكارثة نتيجة طبعه الذي لم يكن يعرف الخوف، والذي لم يكن ينفصل عنه في أي لحظة. فوصلت الخيل عند منتصف الليل إلى الشاطئ الغربي بسلام وكانت المياه قد غطت نحورها. علمًا أن الموج يرتفع على ذلك الشاطئ إلى ٢٢ ذراعًا. فلما خرج نابليون من البحر قال: "لو أني غرقت اليوم هنا كما غرق فرعون لوجد القسيسون المسيحيون مادة جيدة للوعظ ضدي"

.(The life Of Napoleon Bonaparte, By Jean s. c. Abbott p. 96-97)

إنما المعجزة في حادث عبور بني إسرائيل هي أن الله تعالى قد جاء بهم إلى البحر في وقت الجزر، ووضع أمامَ المصريين العراقيل التي أبطأت سرعتهم، حتى جاء المد في البحر. ورد في التوراة أن الله تعالى "خلَع بَكَرَ مَرْكباتهم حتى ساقوها بثَقْلة" (الخروج ١٤: ٢٥). ويبدو أن فرعون لما بلغ البحر كان موسى عليه السلام وأصحابه قد عبروا معظم الجزء اليابس من البحر، فلما رآهم فرعون يعبرون البحر تعقَّبَهم هو وجنوده على عرباتهم، ولكن رماله المبللة تسببت في هلاكهم، حيث أخذت العربات تغوص في الرمال، وتأخروا كثيرًا حتى حان وقت المد، وأخذ الماء في الارتفاع. فما استطاع فرعون أن يتقدم أو يتأخر، فكان أن أحاط بهم البحر فكان مع جنوده من المغرقين.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨١﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨٢﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

المنّ: المنّ مصدرُ مَنَّ يمنُّ، يقال منَّ عليه بالعتق وغيره يُمنّ منًّا.. أي أنعمَ عليه به من غير تعب ولا نصب، واصطنع عنده صنيعةً وإحسانًا. كلُّ ما يُمنُّ الله به مما لا تعبَ فيه ولا نصبَ فهو المنّ. والمنُّ كلُّ طَلٍّ ينـــزل من السماء على شجر أو حجر، ويحلو وينعقد عسلاً، ويجِفّ جفافَ الصمغ كالسِّيَرَخُشْتِ والتَّرَنْجبين (الأقرب).

سلوى: العسَلُ؛ كلُّ ما سلاك؛ طائرٌ أبيضُ مثل السماني؛ وقيل: السلوى اللحمُ (الأقرب).

وورد في المفردات: "السلوى أصلُها ما يسلّي الإنسانَ".

التفسير: لما خرج بنو إسرائيل من مصر إلى كنعان اضطروا للمرور بمنطقة قاحلة جدًّا غير مسكونة تتخللها بعض المدن والقرى على مسافات بعيدة. ولا تزال هذه المنطقة هكذا، والمرور بها ليس بأمر هين. لا شك أن القطار يمر بها الآن، وسهل فيها السفر، إلا أن الأمر لم يتغير حتى الآن فيما يتعلق بكونها غير مأهولة لأنها خالية من الأراضي الصالحة للزراعة والإقامة. أرضها عبارة عن البراري التي لا زرع فيها ولا ماء. لقد حاول الأتراك عبور هذه المنطقة كثيرًا ليصلوا إلى الأراضي المصرية فيقطعوا على الإنجليز الطريق إلى الهند، ولكنهم فشلوا في ذلك لشح الماء وقلة الطعام في المنطقة، وذلك بالرغم من أنهم قد بذلوا في سبيل ذلك تضحيات خيالية. لقد بذل الإنجليز أيضًا قصارى جهدهم ليدخلوا الأراضي الفلسطينية عن طريق السويس، ولكنهم أيضًا منوا بالفشل لاعتراض تلك البراري الجافة والقاحلة طريقَهم. وأخيرًا جلَب الجنـــرال أيلينبي (Allenby) الماء عبر الأنابيب من النيل وأوصله إلى هذه المنطقة من على قناة السويس، وهكذا جعل هذه المنطقة القاحلة التي كانت غير صالحة لإنشاء المدن الكبيرة قابلةً للإقامة. وفي أثناء الحروب الصليبية أيضًا، حين عسكر كبار أبطال الشعوب الأوروبية كلها على جبهة فلسطين والشام ليصدوا سيل الإسلام العارم، كانت لا تزال صحراء سيناء تأخذ من المسلمين والمسيحيين خراج المرور بها. فكم من جيش إسلامي ومسيحي قد هلك في هذه البرية في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادي من جراء شح الماء وقلة الطعام.

فكان لا بد للقوافل من المرور بالجيوب المائية القليلة من العيون والغدران. وكان الفريق الغالب يقضي على رجال الفريق الآخر بغاية السهولة، حيث كان وجود رجال قليلين من الفريق الغالب على مصادر الماء ضمانًا كافيًا بأن الفريق الآخر لن يتمكن من العبور من مصر إلى فلسطين بدون أن يتكبد خسائر جسيمة. يقول أسامة بن المنقذ في كتابه "الاعتبار"كانت هناك ما بين مصر وفلسطين عين ماء باسم "الجفر"، وكانت لا تخلو في أي وقت من بعض الإفرنج، فكان على القوافل

أن يمروا بها بحذر شديد. وذات مرة بعَثني سيفُ الدين بن سالار الوزير المصري إلى نور الدين الشاه برسالة بأن يشغل الإفرنج بالهجوم عليهم من جهته في منطقة طبرية، حتى يهاجم سيفُ الدين من جهته غزةَ فيمنع الإفرنج من بناء حصن هناك. ولما وصلنا إلى عين الجفر لم نجد عليها الإفرنج صدفةً، بل ألفينا هناك أناسًا من بني أبيّ من قبيلة طيء، لم يبق من لحومهم إلا الجلود، وقد برزت عيونهم بشكل مخيف من شدة البؤس والفقر. فقلنا لهم على ما تعيشون هنا؟ قالوا: نغلي عظام المَيْتة ونعيش عليها إذ لا يوجد هنا شيء نأكله. وكانت كلابهم أيضًا تعيش على ذلك. أما خيولهم فكانت ترعى ما نبت حول العين من الكلأ والعشب القليل. فقلنا لهم: لماذا تعيشون هنا بهذا البؤس إذًا؟ لم لا تصعدون إلى جهة دمشق؟ قالوا: خوفًا من وبائها. فقلنا ما أشد هؤلاء غباء! فأي وباء هو أشد فتكًا مما هم فيه (كتاب الاعتبار لابن منقذ ص ٦-٧).

بالاختصار، تبلغ صحراء سيناء من الخطورة والوعورة بحيث كان من العسير على الجماعات الكبيرة أيضًا أن تمر بها إلا باتخاذ تدابير استثنائية. أما الإقامة بهذه البرية فكانت أشد صعوبة. فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا: أن بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر متشردين بائسي الحال، والذين يقال أن عدد رجالهم، البالغين عشرين سنة والصالحين للخدمة العسكرية، قد وصل ست مئة ألف – علمًا أن هذا العدد قد ورد في التوراة (الخروج ١٢: ٣٧)، وهو خطأ بالبداهة، أما القرآن فيقول ﴿وهم ألوف﴾(البقرة: ٢٤٤) – كيف مروا بهذه البرية، ثم كيف أقاموا فيها قرابة ثمان وثلاثين سنة؟ هذا سؤال لا يزال يحير العالم على مر القرون.

لقد ردت التوراة على هذا التساؤل بأنهم مروا وعاشوا بهذه البرية نتيجة معجزة نـــزول المن وبأن اثنتي عشرة عينًا قد انفجرت دونهم في صخرة حوريب. تقول التوراة إن الله تعالى أعان هؤلاء المقهورين وهيأ لـــهم من فضله أسباب الطعام والشراب.

أترك في هذا الوقت موضوع الماء جانبًا لنبحث في موضوع المن.

فبعد قراءة بيان التوراة هذا ينشأ سؤال طبيعي ذو ثلاث شعب: أولاً، ما هو المن؟ ثانيًا، هل وُجد كمعجزة؟ وثالثًا، هل كان من الممكن أن يعيش عليه بنو إسرائيل سنين طويلة؟

عند الرد على الجزئية الأولى من هذا السؤال يطرح سؤال آخر نفسه وهو: هل أطلق بنو إسرائيل اسم المن على هذا الغذاء، أم أنه كان يسمى هكذا من قبل؟ وإذا كانوا هم الذين سموه بذلك فما هي خلفيّة هذه التسمية؟ هل فعلوا ذلك لخصوصية معينة في هذا الغذاء أم لسبب آخر؟

لقد ذكرت التوراة المن أول مرة في الخروج ١٦. تقول التوراة إن بني إسرائيل لما ارتحلوا من إيليم تذمّروا لعدم تيسُّر الطعام في الطريق. فوعدهم الله باللحم والخبز. وفي المساء ظهرت السلوى في البرية، فصادوها وأكلوا لحومها. وفي الصباح وجدوا على وجه البرية شيئًا أبيض صغير الحجم. فلما رأوه قال بعضهم لبعض "من هو"؟ لأنهم لم يعرفوا ما هو (و"مَنْ" تفيد الاستفهام في العربية،؛ إذًا فلفظ "من" الذي استُعمل في العبرانية لفظ عربي في الواقع. والفرق الوحيد هو أن "من" يُستخدم في العربية عادة لذوي العقول وليس لغيرها، ولكن أهل العبرية أخذوا يستعملونه لغير ذوي العقول أيضًا)، فقال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا" (انظر الخروج ١٦: ١١- ١٥).

بسبب هذه الفقرة في التوراة ظن البعض أن لفظ "من" هنا جاء للاستفهام. ثم أخذ بنو إسرائيل يستعملون لفظ "المن" لهذا الطعام حيث ورد: "ودعا بيتُ إسرائيل اسمَه مَنًّا" (الخروج ١٦: ٣١).

ولكن بعض الباحثين قد عدّوا هذا القول خطأً، اتّباعًا لما قاله جورج أيبرز. فهم يرون أن الخطأ راجع لوجود التشابه بين الكلمتين حيث كان اللفظ الحقيقي هو "منو"، وهو لفظ من اللغة القبطية، ويعني الطعام. فبنو إسرائيل لم يسموا ذلك الغذاء منًّا على سبيل الاستفهام، بل الواقع أن الله تعالى لما قال إنه طعامكم الموعود سموا ذلك الغذاء منًّا أي طعامًا، لأنهم لم يعرفوا لـــه اسمًا آخر. إنهم يرون أن "من"

لا يُستعمل في اللغة الآرامية للاستفهام، لذا فمن المستغرب أن يستعمل بنو إسرائيل لفظ "من" بمعنى الاستفهام مع أنه لا يوجد في الآرامية أي لفظ كهذا بالمفهوم ذاته.

ولكن السيد "فيلد" حاول إزالة هذا الالتباس مستعينًا بنسخة يونانية قديمة للتوراة، حيث ورد فيها في الإصحاح ١٦ الفقرة ١٥ "هل هذا منّ"؟

فإذا صحّ هذا الفرق ثبت أن المن قد جاء بمعنى الطعام، وليس بمعنى الاستفهام، حيث كانوا يستخدمون لفظًا آخر للاستفهام.

لا جرم أن اللفظ العبراني المستعمل هنا يفيد الاستفهام أيضًا، ولكن لا شك أن هذا اللفظ لم يرد بهذا المعنى بعد سبي بني إسرائيل وما بعده، إلا في سِفر عزرا وسِفر دانيال. ولم يُعثَر على استعماله بهذا المعنى ما قبل السبي، ولذلك قد اعتبره بعض الباحثين لفظًا آراميًّا.

وللتوصل إلى حقيقة هذا اللفظ، ندرس المواضع الأخرى من التوراة لمعرفة أساليب السؤال عن غير ذوات العقول، فنجد فيها ما يحل هذا اللغز تمامًا. وذلك أنه كلما جاء في التوراة السؤال عن غير ذوي العقول، جاء بلفظ "مَنه"، لا بلفظ "مَن"، وكلما جاء فيها السؤال عن ذوي العقول، جاء بلفظ "زي". فمثلا ورد فيها: "فقال لـــه (أي لموسى) الربُّ: ما هذه في يدك؟ فقال: عصًا" (الخروج ٤: ٢). وقد ورد هنا في النسخة العبرية لفظ "ما زِه" بمعنى "ما هذا". وهناك شبه كبير بين "ما زِه" العبري، و"ما هذا" العربي. هذا الاستعمال لـــ "ما زِه" غير عادي، إذ قد عُبِّر عن هذا المعنى بالعبرية القديمة بلفظ "مَنه" في أماكن عديدة مثل اللاويين ٢٥: ٢٠، صموئيل الأول ٣: ١٧، المزامير ١٢٠: ٣ والأمثال ٣٠: ٤. أما عند السؤال عن ذوي العقول فقد استعملت التوراة لفظ "زي"، وذلك في التكوين ٢٧: ١٨، التكوين ٣٣: ٥، الخروج ١٥: ١١، صموئيل الأول ٢٥: ١٠ والمزامير ٤: ٦.

لقد اتضح بهذا الفرق جليًّا أن لفظ "مَن" الوارد في الخروج: ١٦ لا يفيد الاستفهام، لأنه لم يرد في العبرية القديمة بمعنى الاستفهام، وإنما استُعمل فيها لفظ "مَنه" من أجل الاستفهام.

وكذلك نرى أن لفظ "من" لما تداول استعماله بمعنى الاستفهام خلال فترة السبي وما بعدها فإنما استُعمل من أجل ذوي العقول، لا لغيرها، كما هو الحال في اللغة العربية. فمثلا قد جاء "من" لأجل الاستفهام في عزرا ٥: ٣-٩ ودانيال ٢: ١٥، ولكنه ورد من أجل ذوي الأرواح.

فثبت بذلك، أولاً، أن "من" لم يُستعمل من أجل الاستفهام زمن نـــزول التوراة، وثانيًا أنه لما استُعمل للاستفهام منذ سبي بني إسرائيل فإنما استُعمل لذوي العقول، لا لغيرها، كقاعدة كلية — يبدو من ذلك أن بني إسرائيل إذاك أخذوا يختلطون بالعرب ويستعملون الأساليب العربية السليمة - وإذا ورد استعماله خلاف ذاك فكان استثناء لا يمكن الأخذ به كقاعدة. إذًا فليس من الصحة في شيء تفسيرُ لفظ "من" الوارد في الخروج ١٦: ١٥ بمعنى الاستفهام، ثم الاستنتاج منه بأن بني إسرائيل قد استعملوه من أجل السؤال عن ذلك الغذاء لأنهم لم يعرفوه. إن سوء فهم الكتّاب الأوروبيين لهذا الأمر راجع إلى كونهم يغضون الطرف، لدى التحقيق في لغة ميّتة كالعبرية، عن حقيقة أن أُمّ العبرية.. أي العربية.. لا تزال حية موجودة. كان ينبغي عليهم الاستعانة باللغة العربية للتوصل إلى كنه الكلمات العبرية. ولو أنهم فعلوا ذلك لعرفوا أن لفظ "ما" يُستعمل للاستفهام في العربية لغير ذوي العقول، بينما يُستعمل "من" لذوي العقول. ثم لو أنهم فحصوا كلمات التوراة على ضوء هذه المعرفة لتبين لهم أن القاعدة نفسها قد روعيت في اللغة العبرية المستعملة في التوراة، وبالتالي لَتجنبوا هذه الزلة.

بيد أنه لا بد من الإشادة بهم أيضًا، حيث إنهم قد أدركوا، على الأقل، أن لفظ "من" قد بدأ استعماله للاستفهام منذ زمن السبي وما بعده، وليس قبل ذلك (انظر الموسوعة التوراتية تحت كلمة: Manna)؛ ومن أجل ذلك قد قال بعضهم في تفسير "من" إنه ليس للاستفهام. فقد ذكرتُ من قبل أن جورج أيبرز مثلاً قد اعتبر لفظ "من" مأخوذًا من "منو" المستعمل في اللغة القبطية بمعنى الطعام. كما أن الباحث جيسينيس (Jesenius) قد ذكر في قاموسه أن هذا الشيء قد سُمي "منًّا" نظرًا إلى اللفظ العربي "المن" الذي معناه الفضل والإحسان. إن هذا الكاتب يرى أنه قد

أُطلق على هذا الشيء "منًّا" لأنه نـــزل بفضل الله تعالى ومنّته. وهذا الرأي أقرب إلى الصواب في رأيي.

أما الآن فأبين لكم ما هو المن. يتضح لنا من التوراة أن هذا الشيء كان يسقط مع الندى على شكل حبات بيضاء كحبات الكزبرة، تُطحَن أو تُدقّ في المدق، ثم تُحمَّص أو تُخبَز. وكان طعمه كالزيت الطازج، وكان يذوب إذا حميت الشمس (الخروج ١٦: ١٤، ١٥، ٢٢، ٣١ والعدد ١١: ٧-١٠). وكان لا يسقط يوم السبت، وإذا جمعه الناس يوم السبت فكان يُنتنَ إلا ما قد جمعوه ليوم السبت. وما زال هذا المن يسقط من أجل بني إسرائيل أربعين سنة على التوالي (الخروج ١٦: ٣٥). وقد انقطع نـــزوله عليهم لما دخلوا الأرض الموعودة لهم وأكلوا من غلالها(يشوع ٥: ١٢).

تعالوا لنرى الآن هل يوجد شيء في برية سيناء ينطبق عليه ما ورد في التوراة من وصف؟

والجواب أنه، بغض النظر عن المعجزات، نجد أنه يوجد بالفعل في منطقة سيناء شيء يظهر مع الندى، ويذوب في الشمس، وطعمه كطعم الزيت، ولونه أبيض. ويطلقون في بلادنا على نوع منه "الشِّيرخشت"، وعلى نوع آخر "التَّرَنْجبين"، ويسمى باللغة الهندية "يورس شرط كرا" أي سُكَّرُ الجوانسه إذ يستَخْرجونه في الهند من شجر الجوانسه (كتاب المفردات: خواص الأدوية ص ١٦٥). ويسمى في اللاتينية "منّا". وقد وردت ماهيته ومواصفاته مفصلةً في كتب الطب والموسوعة البريطانية (انظر الموسوعة البريطانية: Manna). وقد شهد السياح الأوروبيون أن المن يوجد في هذه المنطقة حتى اليوم، وإن كان لا يسقط مع الندى، بل هو رحيق شجرة تسمى "تيمركس كيليكا" التي حين تقشرها دودة معينة أو أحد الناس يسيل منها رحيقها هذا ويتجمد. وهناك طرق شتى لجمع المن في بلاد مختلفة. وإن أشهر أنواع المن هو ما يُنتج في صقلية وخراسان. أما في الهند فيصنعون المن من شجرة تدعى جوانسه، ويسمونه "ويد من". أما المن المستورد من مصر فهو مزيف يعرفه الأطباء بسهولة.

ويقول السائح الألماني "برناردت" أن المن الذي يمكن إنتاجه من الأشجار الموجودة في سيناء يُقدَّر بحوالي ثلاث مئة كيلو غرام سنويًّا (الموسوعة التوراتية مجلد ٣ تحت: Manna). ويُظَنّ أن عدد الأشجار في برية سيناء كان أكثر بكثير في القديم وكانت تنتج المن بمقدار كبير جدًّا. وكان بنو إسرائيل، بالنظر إلى عددهم المذكور في التوراة، بحاجة إلى ٢٦٧٥٠ منًّا * من المن للاستهلاك اليومي، وقرابة عشرة ملايين "منٍ" للاستهلاك السنوي. ولكن هناك بون شاسع جدًّا جدًّا ما بين ثلاث مئة من الكيلو الذي يمكن إنتاجه اليوم سنويًّا وبين عشرة ملايين منٍ الذي كانوا بحاجة إليه إذاك. ومهما أطلق أحدنا لخياله العنان فإنه لا يمكن أن يتصور أنه كانت بهذه البرية في زمن من الأزمان غابة كثيفة كبيرة أنتجت هذا المقدار الهائل من المن، ولا سيما أن الأشجار لا يمكن أن تنبت في معظم هذه المنطقة.

ومن الطرق التي يمكن بها حل هذه المشكلة هو أن نعتبر العدد المذكور في التوراة لبني إسرائيل عددًا مبالغًا فيه. ورد في الخروج (الإصحاح ١٢: ٣٧) أن عدد الرجال الإسرائيليين البالغين سن العشرين فصاعدًا والصالحين للقتال كان ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين. وهذا العدد يخص من الرجال من أحد عشر سبطا من اليهود، إذ لم يَحْوِ رجالاً من السبط الثاني عشر. ولو ضممنا إليه رجال هذا السبط لصار عدد كل الشباب الإسرائيليين الصالحين للقتال حوالي ست مئة ألف وخمسين ألفًا. ولنقُلْ أن عدد النساء والولدان والشيوخ غير الصالحين للحرب هو عشرة أضعاف هذا العدد؛ ذلك أن الذين يصلحون للقتال يمثلون ما بين ٦% إلى ١٠ % من مجموع سكان البلد عمومًا. لنفترض أن بني إسرائيل كانوا يُجبَرون على الخدمة العسكرية بكل صرامة، وكان عدد بني إسرائيل غير القادرين على الحرب عشرة أضعاف المحاربين منهم.. أي ستة ملايين. ولكن من المستحيل أن يقبل العقل أن عددهم كان ستة ملايين حينئذ. ذلك أن خروج هذا العدد الهائل من الناس من مصر في ذلك الوقت القليل محال. ثم إن القرية التي كانت وراء نهر

* المنّ مكيال يساوي أربعين كيلو ونيفًا *(المترجم)*.

الأردن والتي جاءوها وأقاموا فيها لا تتّسع لهذا العدد الضخم من الناس. لقد قُدّر عدد سكان فلسطين في عام ١٩٢٦ زهاء ٨٥٢٢٦٨ – ثماني مئة ألف واثنين وخمسين ألف ومئتين وثمانية وستين – (الموسوعة البريطانية: طبعة ١٤: فلسطين). ومساحة هذا البلد تبلغ تسعة آلاف ميل مربع. ثم إن معظم أراضيها غير صالحة للاستيطان، فهي سهول رملية لا يمكن تعميرها. بل إن عدد سكان فلسطين لم يتجاوز مليونًا ونصف المليون حتى اليوم أيضًا بعد أن عمرها اليهود بدعم أمريكي. فمجيء الستة ملايين إلى البلد الذي كان مأهولاً بسكانه سابقًا وإقامتهم به لأمرٌ مخالفٌ للعقل تمامًا.

وهناك دليل آخر ينفي عقليًّا أن يكون عدد بني إسرائيل في ذلك الوقت ست مئة ألف، دعك عن أن يكونوا ستة ملايين. ذلك أنه قد مضت بين ولادة إسحاق عليه السلام ودخول يعقوب عليه السلام مصرَ مئتا عام تقريبًا بحسب التوراة. وقد بلغ عدد نسل إبراهيم عليه السلام من حفيده يعقوب في هذه الفترة اثني عشر فردًا. ولو افترضنا أن أولاد عيسو* أيضًا كانوا مثلهم لصار مجموع أفراد نسل إبراهيم في مصر عندئذ أربعة وعشرين فردًا. وقد مكث هؤلاء في مصر حتى خروجهم منها قرنين من الزمان. وبحسب التقدير العادي، يكون عدد ذرية الاثني عشر ولدًا ليعقوب قد بلغ حوالي ست مئة أو سبع مئة فرد. ولو افترضنا أنهم كانوا كثيري الزيجات والأولاد فيستحيل أيضًا أن يتجاوز عددهم في هذه الفترة خمسة عشر ألفًا أو عشرين ألفًا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن بني إسرائيل كانوا، في أثناء سفرهم، يخافون من أهل قرية عادية، وكانوا غير قادرين على مواجهتهم، أصبح من المؤكد أنه لم يكن مع موسى أكثر من ألفين ونصف الألف من المحاربين.

ونظرًا لهذا العدد يصبح مقدار المن الذي كان ضروريًّا لبني إسرائيل أقل بكثير.

ومع ذلك لا يزال هناك سؤال وهو: هل كان من الممكن أن يعيش بنو إسرائيل على المن وحده؟ إن المن، كما ذكرنا من قبل، نوع من الصمغ، وهو مُسْهِلٌ يليّن

* هو أخو يعقوب عليه السلام *(المترجم)*.

البطن أيضًا، ولا يستطيع المرء العيش عليه أكثر من بضعة أيام. فكيف عاش عليه بنو إسرائيل ثماني وثلاثين سنة؟

ولقد اعترف الباحثون الأوروبيون الجدد أيضًا بمعقولية هذا السؤال، فقالوا إن الوصف التوراتي للمن محرف ومبالغ فيه. إن المن عندهم هو حباتُ (Lichen) أي الأُشْنة والحَزاز التي يأكلها الناس في أيام القحط والمجاعة. والأشنة نوع من الفطر لا يحتاج إنباته ترابَ الأرض، وإنما ينبت على قشور الأشجار وسطوح الصخور وخاصة الصخور التي تسمى "جونسه" عندنا، وعندما يجنى من على الصخور يصبح مثل حبات الدُّخْن التي قد تمّ دقُّها. عندما يجف هذا النبات تنفصل قشوره عن جذره وتأخذ شكل حبات خفيفة الوزن تذروها الرياح هنا وهناك (الموسوعة التوراتية مجلد ٣: Manna).

ويرى علماء النبات أن المن نوع من أنواع الفُطر (الموسوعة البريطانية الجديدة مجلد ١٠: Lichen). والتسليم برأي الباحثين الأوروبيين الجدد يحل السؤال القائل: كيف عاش بنو إسرائيل على هذا الطعام. ولكن سؤالاً آخر يطرح نفسه وهو أنه ليس بين مواصفات هذا النبات وبين الوصف التوراتي للمن أي شَبه. فلا هو حلو، ولا طعمه كطعم الزيت، كما لا يذوب في الشمس.

وعندي أنه من المحال أن نجد الرد على هذا السؤال في التوراة ولا في أسفار الكتاب المقدس الأخرى. ولن يقدر الباحثون الأوروبيون الإجابة عن هذا السؤال مهما حاولوا ذلك، لأنهم بعيدون عن تلك العين التي هي منبع العلم الحقيقي. فإذا كنا بحاجة إلى إجابة سليمة علينا الاستعانة بالقرآن الكريم والحديث الشريف.

لقد ذكر القرآن والحديث الحقائق التالية عن المن:

أولاً: يقول الله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذرَ الموتِ فقال لهم الله مُوتُوا ثم أحياهم﴾(البقرة: ٢٤٤).

ثانيًا: يقول الله تعالى ﴿وأنـــزلنا عليكم المنَّ والسَّلوى كُلُوا مِن طيّباتِ ما رزقناكم﴾(البقرة: ٥٨).

ثالثًا: عن سعيد بن زيد ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: الكَمْأةُ من المنِّ" (البخاري: التفسير: باب قوله تعالى وظلّلنا عليكم الغمامَ وأنزلنا عليكم المن)

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ "أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الكمأة جُدَرِيُّ الأرض. فقال النبي ﷺ: الكمأة من المنِّ" (الترمذي: أبواب الطب، باب ما جاء في الكمأة).

نعلم من الآيات والأحاديث المذكورة أعلاه ما يلي:

الأول: أن بني إسرائيل لم يخرجوا من مصر وهم ملايين بل كانوا ألوفًا.

الثاني: أن الأشياء التي قد هيأها الله لهم كطعام كانت تمثل غذاء عالي الجودة، و لم تكن من المواد الرديئة غذاءً وطعمًا.

الثالث: أن الأشياء التي تيسرت لهم كطعام لم تكن من نوع واحد، بل كانت أنواعًا شتى والكمأة واحدة منها.

والغريب أن المن مذكور في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة طه؛ وفي جميع هذه الأماكن قال الله تعالى ﴿كُلُوا مِن طيباتِ ما رزقناكم﴾؛ مما يوضح جليًّا أن الله تعالى قال ذلك إبطالاً للظن أن ذلك الطعامَ كان من نوع واحد، أو مما تملّه الطبائع أو مما هو رديء في قيمته الغذائية.

عندما نفحص الأُشنة الذي مر ذكره من قبل يتضح لنا أنه أيضًا نوع من الفطر، حيث ورد: هناك تشابه كبير بين الأشنة والفطر بكل أنواعها، وهذا واضح تمامًا من المشابهة الموجودة بين أنواعهما المختلفة الواقعة على حدود طبيعية للنوعين (الموسوعة البريطانية: Lichens).

ولكن الواضح أن الأشنة ليست بطعام جيد، وإنما يأكلها الناس مضطرين في أيام المجاعة. أما الفطر فهو من أجود الأطعمة، وهو غالي الثمن، ويُزرع من أجل الأثرياء خاصة. وله استهلاك هائل في فرنسا حيث إن الفلاح يرسل إلى سوق باريس ما يقارب ثلاثة آلاف رطل في يوم واحد. ثم إنه ينمو بسرعة حتى يضرب به المثل في الإنجليزية للشيء الذي ينمو بسرعة فيقال (Mushroom Growth).. أي

ينمو نموَّ الفطر. وكان هذا هو الطعام الأنسب للذين كانوا يعانون من الجوع حيث ينمو بسرعة ويستهلك بسرعة أيضًا.

أليس مما يسترعي انتباه أصحاب البصيرة أن النتيجة التي توصل إليها الأوروبيون بصدد ماهية المن اليوم في القرن العشرين وبصورة ناقصة، بالرغم من استعانتهم بنسخ عديدة للتوراة وبمساعدة علماء الطبيعة؛ قد بيّنها القرآن الكريم قبل ثلاثة عشر قرنًا بكل وضوح وجلاء وشمول؟

إن ما فهمتُه في ضوء آيات القرآن والأحاديث المذكورة أعلاه إنما هو أن الله تعالى قد أنبت بفضله ورحمته في دشت سيناء الكمأة والترنجبين وغيرهما من الأشياء التي كانت تنمو بسرعة وتمدّ بني إسرائيل بالغذاء بلا تعب. كما جاءت طيور الزرزور وغيرها بكثرة لأن تلك المنطقة يكثر فيها الجراد، والزرازير تحب مثل هذه المناطق لأنها تأكل الجراد بشهية. وبما أن بني إسرائيل كانوا يجدون هذا الطعام بلا تعب فأطلق الله تعالى عليه اسم المن.. أي الطعام الذي هو منة إلهية بحتة. ولم يكن هذا الغذاء من نوع واحد، بل من أنواع مختلفة. ذلك لأن كلمات الحديث الشريف تدل دلالة واضحة على أن المن كان أنواعًا عديدة بيد أنه وُجدت في كل هذه الأنواع مشابهة، وهي أن بني إسرائيل ما كانوا يحصّلونها كادحين في أعمال الحراثة وما شابه ذلك. ولكن هذه الأغذية وطيور الزرزور التي أتت في البرية بكثرة كانت تصيب البطن بالإمساك، لذا أنبت الله تعالى لهم الترنجبين بكثرة، حيث كان تناوُلُه مع الأغذية الأخرى يحافظ على صحتهم. فمن الحقائق التي لا يحوم حولها الشك أن توفُّر المن هناك بهذه الكثرة في تلك الأيام كان معجزة من المعجزات، ولكن المن في حد ذاته هو من الأشياء المتوفرة في هذه الدنيا، وكان غذاء يمكن تناوله لمدة طويلة. كما خلق الله تعالى معه الترنجبين حتى يزيل الآثار الجانبية للطعام البري الجاف، ويحافظ على صحتهم.

هذا التفسير يرد على جميع الإشكالات والأسئلة مثل: كيف عاشوا على المن لهذه المدة الطويلة؟ وكيف كانوا يحصلون عليه طوال السنة؟ وأن طعمه كان كطعم الزيت، وأنه كان يُخبز ويؤكل كأرغفة. ذلك لأن المن لم يكن اسمًا لشيء واحد،

بل هو اسم لمجموعة أشياء كثيرة. كما ليس في هذا التفسير ما يتعارض مع العقل؛ فإن الشعب الذي كان لا بد له من العيش في الصحراء من أجل المكاسب السياسية العليا كان بإمكانه أن يعيش على طير الزرزور وغيرها من الأطعمة. ثم إن عيش هذا الشعب في البرية بسهولة بالعدد الذي ذكره القرآن ليس بالأمر المستحيل.

أما السلوى فله أيضًا معنيان: عام وخاص. فمعناه العام هو كل شيء يسلي الإنسانَ. أما معناه الخاص فهو طير مثل الزرزور. كما أنه يعني العسل أيضًا. وقد ذُكر في التوراة كالآتي:

"ثم انحاز موسى إلى المحلة هو وشيوخُ إسرائيل. فخرَجتْ ريحٌ مِن قِبل الرب، وساقتْ سَلْوَى من البحر وألقتْها على المحلة نحو مسيرة يوم مِن هنا ومسيرةِ يوم من هناك حوالي المحلة، ونحو ذراعين فوق وجه الأرض. فقام الشعب كلَّ ذلك النهار وكلَّ الليل وكلَّ يومِ الغد، وجمَعوا السلوى" (العدد ١١: ٣٠- ٣٢).

فالسلوى يشمل كل طعام يسلي القلب من الطير والشهد وغيرهما. والحق أن الله تعالى كان يريد لبني إسرائيل أن يعيشوا في البرية أحرارًا ليتحلّوا بأخلاق الشجاعة والجلد، فهيأ لهم بفضله الأغذية التي لم يكدحوا في الحصول عليها، والتي اشتملت على اللحم والفاكهة والخضار، ذلك سدًّا لحاجتهم إلى الغذاء، وحفاظًا على صحتهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿كُلُوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيَحِلَّ عليكم غضبي﴾.. أي كلوا الطيبات مما أعطيناكم، ولا ترتكبوا الظلم بصدد هذا الرزق.. أي لأنكم تنالون هذا الرزق في البرية، فلا يعتدي القوي، فيجمع كل الرزق ويحرم الضعيف منه. ولو فعلتم ذلك فسينـــزل بكم غضبي.

وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٥﴾

التفسير: تجد في هذه الآية خير مثال على مدى تلهف عباد الله الأطهار على الدوام للتقرب إليه تعالى. فحين حدد الله موعدًا للكلام مع موسى عليه السلام أخذ

يسرع الخطى إلى المكان المحدد ووصل هناك قبل قومه. فقال الله تعالى لـــه لم جئت مستعجلاً؟ قال يا رب كنت تريد أن تشملني برضاك، فماذا أفعل إن لم أسرع؟ أما قومي فهم سائرون على خطواتي، فبقائي معهم ليس بضروريّ.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٦﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٧﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٨﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٩﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٩٠﴾

التفسير: قال الله تعالى لموسى أنت مشتاق للقائنا هذا الشوق الشديد، وأما قومك فإنهم ما إن تركتَهم وجئت إلينا حتى وقعوا في خدعة السامري. فرجع موسى إلى قومه في غضب وأسف شديدين، وقال لهم ألم يعدكم ربكم وعدًا عظيمًا.. ألم يدعُ ربكم نبيكم ليشرفه بكلامه؟ هل كان إيمانكم ضعيفًا لدرجة أنه ضاع في هذه الفترة القصيرة؟ أم أنكم تريدون أن يحل عليكم الغضب من ربكم فنسيتم الله تعالى في هذه الفترة القصيرة، وخالفتم ما عاهدتموني عليه من الطاعة لأوامري؟ قالوا لم نخالف عهدنا برغبتنا، وإنما الواقع أن مجوهرات قوم فرعون كانت قد وُضعتْ علينا عند الخروج من مصر، وكنا قد ألقيناها جانبًا بعد أن غادرتنا، وقد فعل السامري أيضًا مثلما فعلنا، ولكنه أخذها فيما بعد وأذابها وصاغ

منها عجلاً لا حياة فيه ويخرج منه صوت لا معنى لـــه. فقال للقوم إن هذا إلهكم وإله موسى في الحقيقة، ولكنه نسيه من شدة شوقه للذهاب إلى الجبل.

يبدو من قولهم ﴿ولكنا حُمِّلنا أوزارًا من زينة القوم﴾ أن هذه الحلي والمجوهرات قد أعطاهم المصريون إياها بأنفسهم. ولكن التوراة تقول أن بني إسرائيل استعاروا أواني الذهب والفضة من المصريين، ثم سلبوهم إياها، وأن المصريين أيضًا ما زالوا يعطونهم إياها لأنهم أرادوا خروج هؤلاء من بينهم حتى لا يهلكوا بسببهم. ورد في التوراة: "وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى: طلبوا من المصريين أمتعةَ فضةٍ وأمتعة ذهبٍ وثيابًا. وأعطى الربُّ نعمةً للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلَبوا المصريين" (الخروج ١٢: ٣٥-٣٦).

وكأن التوراة تتهم موسى عليه السلام بأن بني إسرائيل سألوا المصريين حلي الذهب والفضة والثياب وسلبوهم بأمر من موسى. ولكن القرآن الكريم يفنّد ذلك ويقول إنهم لم يطلبوا من المصريين الحلي، بل إن المصريين أنفسهم أعطوهم إياها. والعقل يصدق هذا البيان، لأن النبي لا يكون من الصعاليك واللصوص. ولكن التوراة من جهة تعد موسى عليه السلام نبيًّا، ومن جهة أخرى تعده لصًّا. والحق أن الشهادة الداخلية للتوراة نفسها تبطل هذه التهمة تمامًا. ذلك لأنه بالرغم من أن التوراة تقول أن بني إسرائيل طلبوا من المصريين حليهم بأمر الله تعالى، ولكن قد ورد في التوراة في سِفر الخروج نفسه أنه لما حل العذاب بالمصريين وارتفع الصراخ والعويل في كل مكان بهلاك أولادهم الأبكار، دعا فرعونُ موسى وهارونَ وأمرهما بالخروج مع بني إسرائيل من بين قومه، "وألحّ المصريون على الشعب ليُطْلِقوهم عاجلاً من الأرض لأنهم قالوا جميعنا أموات" (الخروج ١٢: ٣٣).

وهذا يؤكد أن المصريين أنفسهم كانوا يريدون حقًّا خروج القوم من بينهم. فالأقرب إلى القياس أنهم أنفسهم قد أعطوا بني إسرائيل الحلي لكي يخرجوا من بينهم لعبادة ربهم كما يشاءون، ولكي يزول العذاب عن المصريين. وهذا ما بينه القرآن الكريم أيضًا. بل من الممكن أن يكون السامري قد قال للمصريين إن هؤلاء

عندما يخرجون من بينكم سأصنع لهم عجلاً من الذهب ليعبدوه ويرجعوا إلى دينكم ثانية.

إن كلمة ﴿فقَذَفْناها﴾ تدل على أنهم قد رموا هذه الحلي كراهةً، ولكن السامري صنع منها عجلاً لـــه صوت. وبما أن بني إسرائيل كانوا قد رأوا المصريين يعبدون العجل، وكان فرعون نفسه يسجد له، لذلك قال بنو إسرائيل في أنفسهم: ما نبغي أكثر من ذلك؟ لذلك اعتذروا لموسى قائلين: كان عجلاً، ومصنوعًا من الذهب، ثم كان لـــه صوت أيضًا؛ فلم نتمالك أنفسنا من عبادته. فكأنهم برروا بذلك أمام موسى عبادتهم للعجل.

وإن معذرتهم هذه تماثل معذرة شيخ كان حضرة المولوي نور الدين ﷺ يحكي لنا حادثًا له. يقول حضرته ﷺ سمعت ذات مرة أن الشيخ الفلاني قد عقد قران امرأة بشخص قد تم قرانها سلفًا بشخص آخر. فأذهلني الخبر. فدعوت الشيخ وقلت لـــه: بلغني عنك خبر ولكني لم أصدقه. سمعتُ أنك قد عقدتَ لامرأة قرانًا على قران، فما هذه القصة؟ فقال في حماس شديد: لا تصدق كل ما يقال لك من دون تحري الأمر وفحصه. إنك لا تعرف عذري واضطراري. قلت: ولهذا دعوتك حتى أعرف ملابسات الأمر كلها. قال: أيها الأستاذ، كان صاحب القران الثاني قد وضع في يدي دينارًا بحجم العصفور، فهل بقي بعد ذلك عندي، يا تُرى، خيار إلا أن أعقد قرانه؟

فهذا هو مثل قوم موسى عليه السلام، حيث قالوا لـــه إننا لم نخالف عهدنا معك برغبتنا، وإنما اضطُررنا لذلك اضطرارًا. لقد وُضع علينا عبءُ حلي قوم فرعون، فرميناه بعيدًا، وكذلك ألقاه السامري؛ ولكنه صاغ فيما بعد من هذه الحلي عجلاً رائعًا لـــه صوت. فلم نتمالك أنفسنا، وأخذنا نعبده. فما ذنبنا في ذلك؟

إن واقعة السامري هذه تكشف لنا حقيقة ما فعله السحرة أيضًا، حيث تدل على شيوع مثل هذه الخدع والشعوذة بينهم، وأنهم كانوا يصنعون اللعب الميكانيكية.

الواقع أن قوم موسى عليه السلام كانوا قادمين من مصر، وكان قوم فرعون يعبدون العجل بكثرة، بل كان أكبر معبد في مصر هو معبد العجل حيث كانوا يضعون فيه عجلاً لا شية فيه ولا عيب. فقد ورد أن العجل كان يحتل الصدارة بين قائمة الحيوانات التي كان المصريون يعبدونها. فكلما مات عجلهم المعبود بحثوا عن بديل لـــه. وإذا وجدوا عجلهم المنشود في قطيع من القطعان أكرموا صاحب القطيع إكرامًا عظيمًا، كما كانوا يجازون من يعثر على مثل هذا العجل بمكافأة ضخمة (موسوعة الأديان مجلد ١ ص ٥٠٧: Animals).

وورد في مصدر آخر أنه كان عجلاً مقدسًا وكان المصريون القدامى يعبدونه. كانوا يحتفلون بيوم ميلاده كعيد قومي، وكان يوم موته يوم مأتم قومي، وكانوا يستمرون في إقامة المآتم لـــه إلى أن يعثروا على عجل جديد فيه كل تلك المواصفات التي تدل في زعمهم على كونه مظهرًا لله تعالى.

(New Standard Dictionary, v. 1 : Apis)

فبما أن عبادة العجل كانت شائعة بين قوم فرعون فكانت الأفكار الوثنية هذه قد تسربت في بني إسرائيل أيضًا بحكم كونهم خاضعين لحكم المصريين. فاستغل السامري غياب موسى عن قومه، ودفعهم إلى الشرك، فشرعوا ينظرون إلى العجل نظرة إجلال وتعظيم. كان السامري كافرًا في الحقيقة، فاستغل ضعف إيمان قومه، وقال لهم أعطوني حليكم أصنع بها وبما عندي من الذهب عجلاً لكم كعجل المصريين. فابتهجوا باقتراحه، لأنهم ورثوا تعظيم العجل من المصريين. والثابت تاريخيًّا أن العجل أكبر صنم في مصر، كما أنه من الثابت تاريخيًّا أن أهل البلاد الزراعية كانوا يعتبرون البقر إلهًا. ففي الهند كل الهندوس يرون أن البقر إله، ويستبيحون دماء آلاف المسلمين لو ذبح أحد منهم بقرة واحدة. بل هناك معابد كثيرة للهندوس يجعلون فيها تمثال البقر أو العجل. وليس وراء ذلك إلا اعتقادهم أن البقرة ليست حيوانًا، بل هي إله (موسوعة الأديان: Animals).

يخبرنا الله تعالى هنا أن السامري قد ركّب العجل تركيبًا يحدث منه صوت لا معنى لـــه. ويبدو أنه صنعه بحيث كان الهواء يمر من خلفه ويخرج من فمه محدثًا

صوتًا كالصفارة. فانخدع به اليهود السذج، الذين كانوا عبيدًا لقوم فرعون ومتأثرين بدينهم، فظنوا أن موسى، الذي كان يقول إن الله يكلمه، كان عنده عجل كهذا في الواقع، فكان يتفاءل بصوته.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩١﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩٢﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٣﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٤﴾

التفسير: يتضح من هذه الآية أن هارون عليه السلام لم يشترك مع القوم في الشرك، بل قد منعهم منه بكل صرامة. ولكن التوراة تزعم أنه كان شريكًا معهم في هذا الشرك. فقد جاء فيها:

"ولما رأى الشعبُ أن موسى أبطأ في النـــزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا لـــه: قُمِ اصْنَعْ لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجلَ الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انـــزعوا أقراطَ الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأْتوني بها. فنـــزَع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكًا؟ فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتْك من أرض مصر" (الخروج ٣٢: ١-٤).

ثم تقول التوراة إن هارون جعل للعجل مذبحًا، واعتبره إلهًا لبني إسرائيل، حيث ورد:

"فلما نظر هارون بنى مذبحًا أمامه. ونادى هارون وقال: غدًا عيدٌ للرب. فبكَّروا في الغد وأصعدوا مُحرَقات وقدّموا ذبائحَ سلامةٍ. وجلس الشعب للأكل والشرب، ثم قاموا لِلَّعْب" (المرجع السابق: ٥-٦).

إن كل إنسان عنده مسحة من العقل ليدرك أن مَن يكلّمه الله تعالى يستحيل أن يتخذ العجل إلهًا. فمثلاً هل يمكن لشخص يكلّم أخاه يوميًا أن يعتبر ابن آوى أخًا لـــه؟ ولكن الغريب أن التوراة، التي يقال عنها أنها نزلت على موسى، تقول أن هارون اشترك مع قومه في هذا العمل الوثني؟

إن العقل السليم كلما فكر في هذه القضية حكَم بأن التوراة التي نزلت على موسى كاذبة في هذا الشأن، وأن القرآن الكريم الذي نزل بعد موسى بألفي عام هو صادق. بل لو أمعنا النظر في التوراة لوجدنا أن شهادتها الداخلية أيضًا تبطل التهمة الموجهة هنا إلى هارون عليه السلام. حيث ورد في التوراة أن موسى عليه السلام لما علم بعبادة قومه للعجل رجع إليهم من الجبل وقد حميَ غضبًا، وأحرق العجل بالنار وحوّله رمادًا، ثم ذرّاه على الماء وسقاهم ذلك الماء. ونص ما ورد في التوراة هو: "ثم أخذ العجل الذي صنعوا، وأحرقه بالنار، وطحنه حتى صار ناعمًا، وذرّاه على وجه الماء، وسقى بني إسرائيل" (المرجع السابق: ٢٠).

ثم أمر موسى، بحسب التوراة، قومه أن يقتل كل شخص قريبًا لـــه، وهكذا قُتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف شخص. ونص ما ورد في التوراة هو: "فقال لهم: هكذا قال الرب إلهُ إسرائيل: ضَعُوا كلٌّ واحد سيفَه على فخذه، ومُرُّوا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتُلوا كلٌّ واحد أخاه، وكلٌّ واحد صاحبَه، وكلٌّ واحد قريبَه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل" (المرجع السابق: ٢٧-٢٨).

ثم دعا موسى عليه السلام ربه وقال: "آه، قد أخطأَ هذا الشعب خطية عظيمة، وصنعوا لأنفسهم آلهةً من ذهب. والآن إن غفرتَ خطيّتَهم، وإلا فَامْحُني من كتابك الذي كتبتَ. فقال الرب لموسى: من أخطأ إليّ أمحوه من كتابي" (المرجع السابق: ٣١-٣٣).

وبعد قمع هذه الفتنة ذهب موسى عليه السلام إلى الجبل مرة أخرى، فأمره الله تعالى وقال: "تُلبسُ هارونَ الثيابَ المقدسة، وتمسَحه وتقدّسه ليَكْهَنَ لي. وتقدِّم بنيه وتُلبِسهم أقمصةً، وتمسَحهم كما مسَحتَ أباهم ليَكهَنوا لي. ويكون ذلك لتصير

لهم مَسْحَتُهم كهنوتًا أبديًّا في أجيالهم. ففعل موسى بحسب كل ما أمره الرب" (الخروج ٤٠: ١٣-١٦).

كما ورد في سفر العدد الإصحاح ٣ أيضًا أن الله تعالى وَكَّلَ كهنوت بني لاوي إلى هارون وبنيه، وهكذا أخلد ذكرهم للأبد.

لقد اتضح من هذه الفقرات من التوراة أن الله تعالى إذا كان قد سخط على الآخرين سخطًا شديدًا وأمر بقتل المجرمين فإنه تعالى لم يسخط على هارون عليه السلام قط، بل أمر بأن يُلبَس الثياب المقدسة. وأنه تعالى لم يكرم هارون وحده، بل أولاده أيضًا، ووكّل إليهم كهانة المعابد كلها.

فهل هذا كله جزاءُ فعل وثني؟ وهل كان هارون، الذي ارتكب الشرك كما تزعم التوراة، يستحق هذه المعاملة الإلهية على شركه؟ ما دام الله تعالى قد سبق أن قال لموسى "من أخطأ إليّ أمحوه من كتابي" (الخروج ٣٢: ٣٣)، فلمَ لم يمح الله تعالى اسم هارون الذي، ارتكب خطية الشرك، من كتابه، ولِمَ أعرب عن رضاه الكبير عن هارون بدلاً من أن يسخط عليه، ولِمَ أمر بتوكيل كهانة كل المعابد إلى هارون وأولاده؟

إن هذا الجزاء وهذا الرضا اللذان أنعم بها الله على هارون ليدلان على أنه لم يكن ممن عبدوا العجل، دعك من أن يصنع لهم العجل. إنما الحقيقة ما ذكرها القرآن الكريم وهي أن هارون قد نهى بني إسرائيل عن الشرك، وسعى لأن يظلوا متمسكين بالتوحيد، ولكنهم لم يطيعوه. وهذه الحقيقة تبلغ من الوضوح والجلاء بحيث إن كتّاب الموسوعة البريطانية أيضًا قد عدوا قصة شرك هارون باطلة، وقد استدلوا بها على وجود تحريفات وإضافات كثيرة في التوراة الأصلية (الموسوعة البريطانية مجلد ٤ : The Golden Calf ومجلد ١٥: Moses).

هذا، وتكشف علينا دراسة التوراة أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى الجبل لم يحدد عدد الأيام التي يقضيها هناك، وإنما اكتفى بقوله لهم: "اجلِسوا لنا ههنا حتى نرجع إليكم" (الخروج ٢٤: ١٤). ثم "دخَل موسى في وسط السحاب وصعِد إلى الجبل"

(المرجع السابق: ١٨). ولكن بني إسرائيل لما أحسّوا أن موسى قد أبطأ في الرجوع من الجبل شكوا إلى هارون فصنع لهم عجلاً.

ولكن القرآن الكريم يعلن خلاف ذلك ويقول إن موسى عليه السلام ذهب إلى الجبل بعد أن وعد بني إسرائيل بأنه سيعود بعد ثلاثين ليلة، ولكن الله تعالى قد منّ عليه وشرّفه بكلامه عشر ليال إضافية. قال الله تعالى ﴿وواعدْنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمَّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة﴾(الأعراف: ١٤٣). لقد تبين من هذا أن بيان القرآن الكريم هو الحق وليس بيان التوراة، لأن غياب موسى فوق الأيام المحددة هو الذي بث القلق في قلوب بني إسرائيل، لأنه لو لم يكن الميعاد محددًا لما قلقوا في غيابه عنهم مدة شهر واحد، إذ ليس الشهر بمدة طويلة. لقد أصابهم الذعر لأن موسى كان قد وعدهم أنه سيبقى على الجبل ثلاثين ليلة، ولكنه لما لم يرجع إليهم بعد ثلاثين ليلة قالوا في قلق أين غاب موسى؟ فاستغل السامري غياب موسى عليه السلام، وألقى القوم في الفتنة.

أما قول هارون هنا ﴿يا قومِ إنما فُتنتم به﴾.. أي قد ابتليتم بسبب هذا العجل.. فالمقصود منه أنه قد حان الآن امتحانكم حقًّا. وهذا يعني أن ما أذاقهم فرعون من صنوف التعذيب لا يساوي هذه المحنة شيئًا، لأن تلك المحن كانت من قبل العدو، والتي اتحد القوم عندها طبعًا؛ ولكن عند نشوب الفتن الداخلية يتزعزع كثير من ذوي الطبائع الضعيفة. وهذا ما ينبه إليه هارون عليه السلام قومه، فيقول إنه مما لا شك فيه أنكم قد مررتم بكثير من الاختبارات، ولكن الوقت الحقيقي لاختباركم قد جاء الآن، وسوف ينكشف على العالم الآن من هو صادق منكم في إيمانه حقًّا ومن هو كاذب.

لقد تبين من ذلك أنه لا ينبغي لنا أن نستهين بالفتن الداخلية أبدًا، بل يجب التصدي لها بكل ما أوتينا من قوة، لأنها هي الفتن المدمرة. فمهما يكن القوم قلة فإن العدو لا يقدر على القضاء عليهم إذا لم تكن بينهم فتنة داخلية. ولكن إذا ما نشبت الفتنة الداخلية صار القوم عرضة للهلاك.

وأرى من الضروري هنا أن نكتب شيئًا موجزًا عن السامري. وعندي أن السامري ليس اسم شخص معين، بل هو اسم صفاتي، وقد صار فيما بعد عَلَمًا. ذلك أن السامري من السمر يقال سَمَر الشيءَ أي أوثقه وشدَّه بالمسمار. فكل من الحدّاد والنجَّار والصوّاغ سامِرٌ. ويبدو أنه كان بين بني إسرائيل أشخاص حرفتهم الحِدادة والنجارة والصياغة، فسُمّوا سامِرة نظرًا إلى حرفهم، وكان من بين هؤلاء القوم هذا الشخص الفتان الذي أثار بين بني إسرائيل فتنة خطيرة ضد التوحيد. وعليه فإن السامرة اسم قبيلة كانت تمارس هذه الحرف. علمًا أنه في هذه الأيام يمارس أفراد معينون حرفة معينة من هذه الحرف، وصار منهم المتخصصون في كل حرفة من الحرف. أما في الماضي فكان الاتصال بين الأمم محدودًا جدًّا عندئذ، وكان أصحاب هذه الحرف لا يجدون العمل بسهولة، لذا يبدو أن كل هذه الحرف قد اجتمعت في طبقة واحدة من الناس. فكأن السامرة كانت قبلية حرفية واحدة تقوم وحدها بكل من النجارة والحدادة والصياغة وما إلى ذلك، وأن الشخص الذي أثار هذه الفتنة في قوم موسى عليه السلام كان فردًا من أفرادها. بل إن الدراسة الفاحصة للتاريخ تبين لنا أن هؤلاء القوم هم الذين بدءوا في تشكيل الحركات السرّيّة، وليس هذا فحسب، بل إن هؤلاء هم الذين أثاروا الفتن ضد سليمان عليه السلام حيث قاد أحد كبارهم واسمه أحيرام، وكان رئيس البنّائين الذين بنوا معبد سليمان، الحركة المعادية له عليه السلام. وإن الماسونيين ينسبون أنفسهم إلى هؤلاء القوم أنفسهم. وقد نشبت في جماعتنا أيضًا فتنة اشتهرت بفتنة البنّائين.

إذًا فالسامري كان فردًا من قبيلة محترفة سُميت السامرة نسبة إلى حرفتها، وأن اسم السامري اسم صفاتيّ في الحقيقة، وصار فيما بعد عَلَمًا لـــه.

ويبدو أن هذه القبيلة ظلت تتمتع بنفوذ وقوة لفترة طويلة من الزمن، حيث يتضح من كتب التاريخ أن بني قريظة القبيلة اليهودية التي كانت تقطن في المدينة المنورة في زمن النبي ﷺ كان أفرادها صوّاغين وحدّادين.

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

شرح الكلمات:

لم ترقُب: رقَبه: انتظره. رقَب الشيءَ: حرَسه، يقال أنا أرقُبك هذه الليلة (الأقرب).

التفسير: هنا ذكر هارون عليه السلام عذره الحقيقي لموسى عليه السلام. فقال لـــه لقد نهيت القوم بشدة عن عبادة العجل، ولكني لم أشدد عليهم مخافة أن يتمردوا أو أن تتهمني أنت بأني قد شتتُ شمل القوم حيث لم أنتظر أوامرك، أو لم أرعَ وصيتك بالحفاظ على الأمن والسلام.

يظن البعض لجهلهم أن النبي لا يمكن أن يكون مطيعًا لنبي آخر، وإنما يكون مطاعًا على الدوام (محمدية باكت بك ص ١٨٢). ولكن هذا خطأ. لا شك أن النبي يكون مطاعًا للذين يُبعث إليهم، ولكن لا يصح القول أنه لا يكون مطيعًا لأحد. وإلا لوجب القول أنه – والعياذ بالله – لا يكون مطيعًا لله تعالى أيضًا. وهذا باطل بالبداهة. خذوا مثلاً هذه الآية نفسها حيث يقول هارون عليه السلام لقومه ﴿فاتّبعوني وأطيعوا أمري﴾. فإنه يعتبر نفسه هنا مطاعًا لقومه. ولكن لما رجع موسى من الجبل قال لهارون ﴿أفعصيتَ أمري﴾؛ وهذا يبين جليًّا أن هارون كان مطاعًا لقومه من جهة، ولكنه كان مطيعًا لموسى من جهة أخرى. ثم إنه قال لموسى ﴿إني خشيتُ أن تقول فرّقتَ بين بني إسرائيل و لم ترقب قولي﴾.. وهذا يعني أن هارون عليه السلام كان ينتظر أوامر موسى في كل أمر ذي بال، وكان يتوخى الحذر كله من أن يقصر في طاعة موسى. فثبت أن ما يزعمه عامة الناس من أن النبي لا يكون مطيعًا لنبي آخر لزعم باطل تمامًا بحسب القرآن الكريم.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٦﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٧﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٨﴾

شرح الكلمات:

أثر الرسول: الأثرُ: الحديثُ (الأقرب). أما الرسول هنا فهو موسى عليه السلام.

نسفًا: نسَفه: عضَّه (الأقرب). ونسَف الشيءَ: غربَله (المنجد)

فالمراد من قوله تعالى ﴿لننسفنّه﴾ أننا سنقطعه ثم نغربله.

التفسير: سأل موسى السامريَّ: لماذا فعلت هكذا؟ قال يا موسى إن قومك أغبياء، وأنا ذكي. إنهم لم يروا فيك ما رأيته.. أي أنهم قد آمنوا بك ولكني لم أؤمن بك في الحقيقة، بل آمنت ببعض وكفرت ببعض لكي ينخدع القوم ويتخذوني زعيمًا لهم. ثم لما رأيت أن إيمانهم قد تزعزع بعد غيابك على الجبل رميت ما آمنتُ به من تعليمك عرض الحائط. لقد سوّلتْ لي نفسي من قبل أن أؤمن ببعض تعليمك فآمنت، ثم سولت لي أن أكفر به فكفرت، فلما رأيت قومك مائلين إلى الشرك صنعت لهم عجلاً لكي يتخذوني سيدًا عليهم.

فقال لـــه موسى لقد فعلت هذا لتنال العزة والسيادة، وليس جزاؤك الآن إلا أن تلقى الخزي والهوان بين القوم. فعقابك أن تنادي بين بني إسرائيل كلما مررت بهم: لا يمسَسْني أحد لأن موسى قد نهاكم عن الارتباط بي كلية. واعلم أن عقابك هذا سيستمر طيلة حياتك. وهذا عقابك في الدنيا، وهناك عقاب آخر أيضًا ولا بد أن ينالك.

يقول البعض إن فرض حظر الكلام على القوم مع أحد غير جائز ولو من أجل الحفاظ على النظام القومي. مع أن هذا الزعم لو كان صحيحًا لصار موسى عليه السلام أول المجرمين حيث أمر السامري أنك إذا مررت بني إسرائيل فعليك أن تنادي بينهم أن لا يمسني أحد لأن موسى قد نهاكم عن ذلك.

الحق أن عدم اختلاط المرء ببعض القوم حفاظًا على النظام القومي تعبيرٌ عن الغيرة الدينية، ولا يمكن أن يسمى "مقاطعة اجتماعية". إذا كان هذا مقاطعة اجتماعية فلم لا يرسل كل مسلم أولاده إلى علماء الهندوس ليعلّموهم كتابهم "الفيدا"؟ أو إلى القسيسين ليدرسّوهم الإنجيل؟ هناك ضجة عالية في باكستان ومصر تطالب بعدم السماح للمعلمين المسيحيين بأن يعلموا أولاد المسلمين الإنجيل في المدارس المسيحية، وإلا على المسلمين أن لا يرسلوا أولادهم إلى تلك المدارس. إذا كان من غير الجائز لقوم أن يقطعوا، بحريتهم ورغبتهم، صلتهم بأشخاص قد انضموا إلى صفوفهم في الظاهر ليخدعوهم، فلن تستطيع أمة الحفاظ على إيمانها. فمثلاً لو سب أحد أباك فامتنعت عن الكلام معه فهل يسمى هذا مقاطعة، أم أن هذا دليل على غيرتك؟ وبالمثل لو انضم شخص إلى طائفة وبدأ إغواء شبابها عن عقائدها شيئًا فشيئًا، فمنعهم آباؤهم عن الاتصال بمثل هذا الشخص المفسد، فلن يُعتبر هذا مقاطعة، بل هو الغيرة الإيمانية.

ثم قال موسى عليه السلام للسامري ﴿وانظُرْ إلى إلهك الذي ظلتَ عليه عاكفًا لنُحرّقَنّه ثم لنَنْسفنّه في اليم نَسْفًا﴾.. أي بالإضافة إلى قطع العلاقات معك ستنال في الدنيا عقابًا آخر أيضًا، وهو أننا سنحرق إلهك الذي كنت تعبده، ثم نذري رماده في النهر لكي تعلم أن الله تعالى واحد ولا إله إلا هو.

قد يقول هنا أحد: كان الصنم من الذهب فلا معنى لتحويله إلى الرماد، ثم نسفه في اليم، لأن النار لا تحوّل الذهب رمادًا. ولو قيل أنهم قد خلطوا بالذهب المغلي أشياء أخرى كثيرة ليحوّلوه رمادًا، مثلما يفعل الأطباء فيخلطون قليلاً من الذهب ببعض الأدوية؛ فالمشكلة أن ذلك الذهب لم يكن قليلاً، لأنه ذهبُ الأثرياء في عاصمة فرعون، فلم يكن حرقه وخلطه بأشياء أخرى لجعله رمادًا بأمر سهل؟

اعلم أن المسيحيين هم الذين أثاروا هذا الاعتراض وقالوا إن القرآن مليء بمثل هذه القصص الباطلة (ينابيع الإسلام الفصل الثالث ص ٤). وذلك بالرغم أن هؤلاء المسيحيين أمة تنوب عن اليهود الذين قد نقل القرآن هذه القصة عن كتبهم بصورة تجعلها معقولة.

الواقع أن الصنّاع يركّبون الخشب في مثل هذه الأشياء لإحداث الصوت منها، إذ من السهل صنع أوتار خشبية مشابهة لأوتار حنجرة الإنسان. ومثال ذلك الناي. فالقرآن الكريم إنما أشار بهذه الكلمات إلى الطريقة التي أخرج بها السامري الصوت من هذا العجل. لقد ركّب في العجل الخشب، ثم جعل منها أوتار خشبية إذا مر بها الهواء أحدث صوتًا. فلما أُحرق العجل الذهبي ذاب الذهب، وتحول الخشب رمادًا، ثم قُذف هذا الرماد مع الذهب في البحر.

ولكن بما أن القرآن الكريم قد استخدم لفظ ﴿لَننسفنّه﴾، ومن معاني النسف العضّ والقطع أيضًا، والمعادن تُقطَع بالمبرد؛ ثم من معاني النسف أيضًا الغربلة؛ وعليه فستعني هذه الآية أيضًا أننا سنقطع هذا العجل المحرَق بالمبرد ونجعله ذرات، ثم نغربل ذراته ورماد الخشب بالغربال، ثم نلقي الرماد والبُرادة الذهبية الدقيقة في البحر، أما الذرات الذهبية الكبيرة التي لم تعد على شكل صنم الآن والتي لا تتسبب في انتشار الشرك، فنستخدمها لمنفعة القوم، لأن هدفنا هو إثبات وحدانية الله الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾

التفسير: لقد أعلن القرآن الكريم هنا أن التفصيل الذي ذكرناه لهذه الواقعة هو الحق، وأن التفصيل الذي ورد في الإسرائيليات هو الباطل، فإن الله تعالى هو الذي قد أنزل القرآن، وهو العليم بكل شيء.

لقد ذكر المفسرون هذا الحدث بناء على الإسرائيليات وقالوا أن الرسول المذكور في قوله تعالى ﴿فقبضتُ قبضة من أثر الرسول﴾ هو جبرائيل وليس موسى، وأن لفظ الأثر هنا إنما هو بمعنى أثر الأقدام (الدر المنثور)، وليس الأثر هنا بمعنى الحديث كما ورد في القواميس؛ فقال السامري لموسى كنتُ أرى جبرائيل حين يأتيك، ولكن قومك لم يروه، وذات يوم أخذت التراب من تحت قدمي جبريل، وحينما صنعت العجل أذبتُ الذهب وخلطتُه بهذا التراب؛ فبدأ العجل يتكلم.

إن هذه القصة خاطئة وباطلة بالبداهة لعدة أسباب وهي: أولاً، لو صح هذا الزعم فما كانت هناك حاجة لأن يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ هكذا نقص عليك من أخبار الماضي، ونفصّل لك الحقيقة من عندنا؟ ما دامت الحقائق كلها مذكورة في الكتب السابقة، كما يريد أن يؤكد المفسرون بتصرفهم هذا، فما الداعي لمثل هذا الإعلان الرباني.

وثانيًا، إن المفسرين السذج عندنا هم الذين يمكنهم أن يصدّقوا أن كبار المؤمنين بموسى لم يتمكنوا من رؤية جبريل، في حين أن السامري الكافر قدر على رؤيته.

وثالثًا، إنه من السذاجة بمكان القول أن العجل بدأ يتكلم حين خُلط الذهب بتراب قدمي جبرائيل! الحق أن الصواغين البسطاء أيضًا يدركون أنه لو كان التمثال فارغًا من الداخل، وكان به ثقبان، ثقبٌ في فمه وثقب في خلفه، وتكون في الثقب الأمامي ستائر خشبية كما تكون في الناي، فإذا دخل الهواء من خلفه صوّت من ثقبه الأمامي، كما هو الحال في الناي والصفارة.

فالحق أن الأمر الواقع هو ما ذكرناه، وهو مطابق للكلمات القرآنية. أما المفسرون فقد أخطأوا، حيث صدّقوا الإسرائيليات أولاً، ولم يتدبروا في اللغة ثانيًا. ولو أنهم تدبروا اللغة لأدركوا أن الأثر يعني الحديث أيضًا، وأن الرسول هنا هو نفس الرسول الذي سبق ذكره، وليس جبريل.

مَنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلًا ﴿١٠٢﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقًا ﴿١٠٣﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرًا ﴿١٠٤﴾

التفسير: يوم القيامة نوعان بحسب القرآن الكريم والحديث الشريف، أوّلهما يوم موت الإنسان لقول الرسول ﷺ: "مَن مات فقد قامت قيامته" (مجمع بحار الأنوار مجلد ٣ ص ١٨٣)؛ وثانيهما يوم الحشر حيث يُبعث الأولون والآخرون جميعًا ويُحيَون ثانية.

والمراد من ﴿يوم القيامة﴾ في قوله تعالى ﴿فإنه يحمل يوم القيامة وِزْراً﴾ هو يوم موت الإنسان، وأما يوم القيامة في قوله تعالى ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ فهو بمعنى يوم إحياء الأمم كلها حين يعرف الجميع بمصير المشركين، وستتبرأ الأمم كلها من الشرك.

وهذا نبأ يتعلق بالعصر الراهن حيث أخذت كل أمة وثنية تدعي أنها في الحقيقة تؤمن بالتوحيد. فالهندوس والنصارى كلهم بدأوا اليوم يقولون إننا لا نؤمن إلا بالله الأحد، وأن الناس قد أساءوا فهم الكثير عنا. والله تعالى يخبر هنا أن هذه النبوءة ستتحقق حين تحدث صحوة بين الأمم كلها، ولا سيما حين يهبّ المشركون بعيون زرقاء.. أي عندما يكون الشرك منتشرًا خاصة في الشعوب ذوي العيون الزرقاء أي الشعوب الأوروبية والأمريكية. ورغم أن هؤلاء سيظنون أول الأمر بسبب زهوهم بقوتهم أنهم سيحكمون العالم دائمًا، إلا أنهم سيتهامسون فيما بينهم يومئذ أن عمرهم لم يكن إلا عشرًا أي عشرة قرون.. أي يقولون فيما بينهم إن فترة رقيكم لم تكن إلا ألف سنة، فكيف أصابكم الزهو والغرور مع ذلك، ونسيتم توحيد البارئ ﷻ؟

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٥﴾

التفسير: أي أننا أعلمُ بما يتهامسون، يومَ يقول أكبر زعيم لهم إننا لم نحكم الدنيا إلا فترة وجيزة في الحقيقة.

اعلم أن زعيمهم يستخدم هنا لفظ ﴿يومًا﴾، ولكن لفظ اليوم يعني في العربية الوقت مطلقًا أيضًا (الأقرب)، كما صرح القرآن الكريم أيضًا بذلك فقال ﴿وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعُدّون﴾(الحج: ٤٨)، ثم سبق قولهم ﴿إن لبثتم إلا عشرًا﴾، وقد يراد من ﴿عشرًا﴾ عشرة قرون أيضًا وهي تساوي ألف سنة، لذلك كله يمكن أن يكون لقوله تعالى ﴿إلا يومًا﴾ مفهومان، أولهما أنكم لم تلبثوا إلا "اليوم الرباني" أي ألف سنة، وثانيهما أنكم حين نلتم العقاب بدت لكم فترة الرخاء قصيرة جدًّا، فصحّ أن يقال إن فترة رقيكم لم تكن إلا قليلاً حيث هلكتم في آخر الأمر.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٦﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٧﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٨﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٩﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

ينسف: نسَفه: اقتلَعه. ونسَف الريحُ الشيءَ: اقتلعتْه وأزالته (الأقرب).

الجبال: الجبلُ: كلُّ وتدٍ للأرض عظُم وطال؛ سيّدُ القوم وعالِمُهم (الأقرب).

أَمْتًا: الأمْتُ: المكان المرتفع (الأقرب).

هَمْسًا: الهمسُ: الصوتُ الخفي (الأقرب).

التفسير: لقد نبّه الله تعالى هنا إلى أن أصحاب العيون الزرقاء، أي الأوروبيين، حين يقرءون نبأ القرآن عن تدمير هذه الحكومات المسيحية، يقولون إذا كان هذا صحيحًا فماذا عن ملوكنا وأباطرنا ودوقاتنا؟ فرد الله على سؤالهم وأخبر أنه سيتم القضاء على هؤلاء الملوك والأباطرة والدوقات قبل حلول هذا الدمار، فتسود الديموقراطية جميع البلاد؛ مما سيمهّد شيئًا فشيئًا لاستماع الناس لصوت حامل القرآن الكريم الذي لا عوج في تعليمه ﷺ؛ وسيعلو صوت الرحمن، وينخفض صوت الشرك حتى يأتي وقت يكون فيه إسلام المرء شفاعةً وسببًا لرقيه عوضًا عن المسيحية التي كانت سببًا لرقي الناس من قبل.

لقد قلت إن إسلام المرء سيكون شفاعةً لرقيه لأن الله تعالى يقول هنا ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من إذن لـــه الرحمن ورضِي لـــه قولاً﴾، بينما يقول تعالى عن المسلمين ﴿رضي الله عنهم ورضُوا عنه﴾(المجادلة: ٢٣)؛ فثبت أن قول تعالى ﴿ورضي لـــه قولاً﴾ يشير إلى المسلمين، حيث بين الله تعالى أن إسلام المرء سيُعَدّ أكبر ما عنده من المؤهلات للرقي والصعود.

يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ﴿١١١﴾

التفسير: لقد تحدى الله تعالى هنا أن هذه النبوءة ستتحقق حتمًا لأنها من الله العليم.

وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمًا ﴿١١٢﴾

شرح الكلمات:

الوجوه: الوجهُ: سيِّدُ القوم (الأقرب).

القيّوم: هو القائمُ الحافظُ لكل شيء، والمعطي لـــه ما به قَوامُه (المفردات).

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا أنه سيأتي في آخر المطاف زمان يخضع فيه كبار الناس والقوى والحكومات جميعًا لدين الله الحق، ويدخلون في ملة الإسلام.

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٣﴾

شرح الكلمات:

هضمًا: هضَم الشيءَ: كسَره. وهضَم فلانًا: ظلَمه وغصَبه (الأقرب).

التفسير: أي قبل حلول ذلك العصر سيأتي على الناس زمان يخاف فيه المسلمون ظلم الناس وضيمهم، ثم يأتي بعده أيام يدخل فيها المسيحيون أنفسهم في الإسلام، فيُحفَظ المسلمون من الضيم وهضم الحقوق.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٤﴾

التفسير: أي أن الله تعالى قد دبّر لإسلام المسيحيين أنه تعالى قد أنزل القرآن الكريم بحيث إن كل من لم يُعْمه التعصب يمكن أن يفهمه. فحينما تنفتح عيون المسيحيين سيصدّقون القرآن الكريم؛ أما المعاندون منهم فإن لم يصدّقوه بالمنطق والبرهان، فسيؤمنون به خوفًا من العذاب، أو سيهلكون بصنوف العذاب. فلكي يرغّب القرآن المسيحيين في ذكر الله تعالى سيعرض عليهم المعارف المبتكرة، التي تساعدهم على الهدى، وتشحن قلوبهم طيبةً وخيرًا.

لقد استعمل الله تعالى هنا لفظ ﴿قرآنًا﴾ للإشارة إلى أن هذا الكتاب سيُقرأ بكثرة، بينما أشار استعمال لفظ ﴿عربيًّا﴾ إلى أنه سهل الفهم، لأن كل ما فيه مدعوم بالأدلة والبراهين.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٦﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه يريد من الإنسان أن يُعمل عقله في أمور كثيرة، ولكن الذي هو غير مدرك لهذه الحقيقة يريد أن ينـــزل وحي الله فورًا ويبين كل التفاصيل حتى لا يضطر لإعمال فكره. يقول الله تعالى: هذا غير سليم. إن الوحي عندما يكتمل سيكون متضمنًا لكل الأمور الضرورية الحيوية، أما الأمور التي يريد الله تعالى من الإنسان أن يحكم فيها بنفسه، بعقله واجتهاده، فلا يبينها الله تعالى في وحيه. وإنما يريد الله تعالى من الإنسان أن يستعين به بصددها بالدعاء الإجمالي دائمًا، فيقول يا رب أَنْزِلْ على قلبي نورك في كل أمر شخصي أو قومي أنا محتاج لهدايتك بصدده، حتى لا أضل ولا قومي، وزدْني علمًا على الدوام.

هناك فكرة سائدة بين الناس على العموم أن الطفولة هي سنّ التعلم، والشباب هو سنّ العمل، وأما الشيخوخة فهي سن العقل؛ ولكن القرآن الكريم يقول إن المؤمن الحقيقي يجمع في شخصه هذه الأمور كلها، فشيخوخته لا تعيقه عن العمل وتحصيل العلم، كما أن شبابه لا يعطل عقله؛ بل إنه كما يكون في صغره تواقًا للتعلم بمجرد أن يصبح قادرًا على التكلم، فإذا سمع شيئًا نقده وفحصه وسأل عنه، كذلك فإنه في شيخوخته أيضًا لا يبرح عاكفًا على اكتساب العلم، ولا يراه في غنى عن تحصيل المعرفة. وإن أكبر مثال على ذلك هو شخص الرسول الكريم ﷺ فقد أمره الله تعالى ﴿وقُلْ ربِّ زدْني علمًا﴾.. وهو ﷺ في الخامسة أو السادسة والخمسين من عمره. ومعناه يا محمد (ﷺ) إننا نعاملك معاملة الأم لولدها، فنوصيك في هذه السن الكبيرة التي يصبح الناس فيها عاطلين، غير راغبين في المزيد من المعرفة والعلم، أن تداوم على الدعاء: رب أريد المزيد من العلم.

فالمؤمن لا يغفل أبدًا عن تحصيل العلم في أي مرحلة من حياته، بل إنه يجد في تحصيله لذة ومتعة. أما غير المؤمن فإنه حين يدخل تلك المرحلة التي يظن فيها أنه قد نال من العلم ما كان مقدرًا له، فلا داعي للمزيد من الجهد، لأنه لو سأل عن شيء طلبًا للعلم سيقول الناس إن هذا يجهل هذا الأمر أيضًا، فإنه يصبح محرومًا من المزيد من العلم والمعرفة. انظر إلى إبراهيم عليه السلام كيف قال لله تعالى رغم تقدم سنّه ﴿ربِّ أرِني كيف تحي الموتى﴾(البقرة: ٢٦١)، في حين أن الناس لا يتفكرون في موضوع إحياء الموتى أبدًا. فلا الحياة الإنسانية أعجوبة في نظرهم، ولا الحياة الحيوانية غريبة عندهم. إن الحياة الإنسانية مستمرة منذ آلاف السنين، ولكنهم لم يتدبروا قط كيف بدأت الحياة. لقد كان دارون هو الشخص الوحيد في هذا العصر الذي نشأ في قلبه السؤال عن ظهور الحياة في أول أمرها، وكيف تطورت الحياة الإنسانية بمراحلها المختلفة. وبغض النظر عما إذا كان بحثه بهذا الصدد صحيحًا أو غلطًا، إلا أنه بلا شك أول شخص في العصر الحاضر انتابته هذه الفكرة، ثم أعقب بعد ذلك توجهٌ عام في العالم كله لمعرفة بداية الكون؟ وإن إبراهيم عليه السلام هو الآخر سأل الله تعالى ﴿ربِّ أَرِني كيف تحي الموتى﴾.. وهذا يعني أن الفكرة التي راودت العلماء العلمانيين في زمن دارون قد نشأت قبل آلاف السنين في قلب إبراهيم عليه السلام أيضًا. فقال: رب، كيف تكتسب هذه المادة الميتة الحياةَ؟ كان دارون يبحث عن سر الحياة المادية، أما إبراهيم عليه السلام فما كان مهتمًّا بالحياة المادية، وإنما كان يبحث عن الحياة الروحانية، فسأل اللهَ تعالى أن يخبره كيف يحيي الأرواح. وعند سؤاله هذا لم يقل الله تعالى: ما بك يا إبراهيم تسألني هذه الأسئلة الصبيانية وقد بلغت الخمسين أو الستين من العمر، بل أخبره الله تعالى عن كيفية حياة الأرواح. إذًا فيجب على المرء أن يرغب في طلب العلم في أي سن، وأن يدعو الله تعالى "ربِّ زِدْني علمًا" في كل حين. ذلك لأنه من المحال للإنسان إحراز الرقي ما لم يكن قلبه متعطشًا إلى المزيد من العلم والمعرفة على الدوام.

ثم يضرب الله لنا مثال آدم، ويقول إنكم من نسله. إنه لم يكن أصغر منكم بل كان أكبر منكم. كان أباكم ومأمورًا من الله تعالى، وكان متحمسًا لطاعته. ولما

أنزلنا عليه الأحكام بحسب مقتضى عصره فإنه رغم رغبته القلبية في طاعتنا نسي بعضًا منها.. أي حصل منه سهو بشأنها. فلِمَ تطلبون منا أوامر يقينية في كل قضية، وأنتم أبناؤه وأدنى منه شأنًا؟ عليكم أن تسعوا للعمل بما أنزلنا من الأحكام، وأما ما لم نترل بشأنه حكمًا معينًا فعليكم بالتدبر والاجتهاد مستعينين بالله تعالى دائمًا بأن يزيدكم علمًا حقًّا نافعًا ينفعكم، لكي نستضيء به ونظل سائرين على الصراط المستقيم.

إن قوله تعالى ﴿ولم نَجِدْ لـــه عزمًا﴾ يدل على أن آدم عليه السلام إنما وقع في خطأ اجتهادي من غير قصد. فإن الله تعالى يخبرنا في سورة الأعراف أن الشيطان قد جاء آدم متنكرًا في عباءة ناصح أمين، ﴿وقاسَمَهما إني لكما لمن الناصحين﴾(الآية: ٢٢). وكأن الشيطان ترك العداء الظاهري لآدم وانضم إلى جماعته، وحلف لهم مؤكدًا لهم صدقه وإخلاصه. شأنه شأن المنافقين الذين يخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أنهم يأتون محمدًا (ﷺ) ويحلفون لـــه قائلين: إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في أحلافهم؛ فاحْذَرْهم دائمًا(المنافقون: ٢). وهذا ما فعل رأس المنافقين في زمن آدم، فجاءه مؤكدًا له إخلاصه وولاءه؛ ففكر آدم أن هذا الشخص كان ذا نزعة إبليسية من قبل، ولكنه قد ترك الآن العداء، فلا حرج في الاتصال به. فكانت نتيجة خطئه الاجتهادي هذا أنه اضطُر للخروج من حالة الأمن والسلام التي كان فيها. فقوله تعالى ﴿ولم نجدْ لـــه عزمًا﴾ إشارة إلى هذا الخطأ الاجتهادي.. أي أن الشيطان أزلّ آدم على خلاف إرادته.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٧﴾

التفسير: يقول البعض هنا إنما أُمر الملائكة بالسجود لآدم، فإذا كان إبليس لم يسجد فما ذنبه في ذلك؟

إن هذه المسألة يحلها حديث لرسول الله ﷺ. قال النبي ﷺ: "إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى جبريلَ إن الله يحبّ فلانًا فأحبِبْه، فيُحبّه جبريلُ، فينادي جبريل في أهل

السماء: إن الله يحب فلانًا فأَحِبُّوه، فيحبّه أهلُ السماء. ثم يوضَع له القبول في الأرض" (البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة).

فقد تبين من هذا الحديث أن الله تعالى يأمر ملائكته بحبّ أحبّته، ثم إنه ينفذ أمره هذا في العالم. وثبت بذلك أن أمر الله هذا لا يكون خاصًّا بالملائكة وحدهم، بل يشمل أهل الأرض أيضًا. وإلى هذا الأمر الإلهي نفسه تشير هذه الآية، حيث يخبرنا الله تعالى أن الجميع أطاعوا أمري وأخذوا في تأييد آدم إلا إبليس.

وإن هذا الشرح يوضح لنا أيضًا قول الله تعالى لإبليس ﴿ما منَعك ألا تسجُدَ إذ أمرتُك﴾(الأعراف: ١٣).. أي ما دُمتُ قد أمرتك بطاعة آدم فما الذي منعك من تنفيذ أمري. فالأمر هنا يعني اللَّمّة الملائكية، وليس المراد أن الله تعالى كان قد أصدر إلى إبليس أمرًا على حدة.

فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٨﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٩﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢١﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٣﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى في هذه الآيات أنه تعالى لما أسكنَ آدم في الجنة قام الشيطان في وجه آدم خصمًا؛ فقال الله تعالى لآدم، إنه عدوك وعدو زوجتك، أو عدو أصحابك، فحذارِ أن يخرجكما من الجنة فتقعا في المشقة. لقد قررنا ألا يصيبك في هذه الجنة جوع ولا عريٌ ولا عطش ولا حر، ولكنك إذا أطعت خصمك هذا فسيطردك من الجنة. ولكن هذا لا يعني أنه كان حينذاك في تلك الجنة

التي وُعدها المؤمنون بعد الموت، فإن الآية التالية توضح الأمر بكل جلاء، حيث إن الشيطان أيضًا يعد آدم بالجنة؛ فلو كان آدم إذاك في الجنة فكيف اغتر بوعد الشيطان هذا؟ فثبت بذلك أن الخدعة التي وقع فيها آدم بقول الشيطان إنما هي أنه ظن أن هذا يريد مساعدته في مهمته. فثبت أن الجنة هنا ليست الجنة الأخروية، بل هي الجنة التي قد قُدرت للمؤمنين في هذه الدنيا.

وأما ما ورد في أماكن أخرى من القرآن الكريم أن الله تعالى أسكنه في الجنة فإنما المراد منه أيضًا الجنة الدنيوية، التي تمهد للجنة الأخروية، والتي بدونها لا تُنال الجنة الأخروية أيضًا.

المهم أن الله تعالى لما قال لآدم إن الشيطان عدو لك جاء آدمَ متنكرًا وقال لـــه هل أدلك على شجرة إذا أكلت من ثمرها نلت الحياة الأبدية، وهل أخبرك بمُلك لا يباد أبدًا؟ فاغتر آدم بكلامه المعسول، فأكل هو وجماعته، أو هو وزوجته، من ثمر تلك الشجرة التي قد نهاه الله عن الاقتراب منها.. بمعنى أنهم أتوا العمل الذي قد نُهوا عنه. وبما أن ما ارتكبه آدم كان خلافًا لمشيئة الله تعالى فأخذت عواقبه السيئة تظهر على الفور، فأدرك آدم أنه قد ارتكب خطأ فادحًا بمخالفته أمر الله تعالى. حيث يقول الله تعالى ﴿فبدتْ لهما سوآتُهما﴾.. أي بأكلهما من تلك الشجرة انكشفت عليهما عيوبهما، وظهرت عليهما النتائج السيئة لِفعلتهما، وعلِما أنهما قد وقعا في أمر معيب.

فلما أحس آدم بخطئه ﴿طفِقا يخصِفان عليهما مِن ورَق الجنة﴾.. أي أخذا يغطيان نفسهما بأوراق الجنة.

ثم يقول الله تعالى إن آدم خالف أمر الله تعالى فوقع في الشقاء. ثم أكرمه الله تعالى حيث إن آدم لما أخذ بتغطية نفسه بورق الجنة هداه الله تعالى إلى طريق يؤدي به وبجماعته إلى الفلاح.

ومن معاني الورق في العربية الزينة، والنسل أيضًا حيث ورد في القواميس: الورقُ جمالُ الدنيا وبهجتُها. ويقال أنت طيّب الورقِ أي طيّب النسلِ (الأقرب). وعليه فقوله تعالى ﴿فطفِقا يخصِفان عليهما من ورق الجنة﴾ يعني أوّلاً، أن آدم

وزوجته أخذا يستران نفسهما بزينة الجنة وجمالها. والبديهي أن زينة الجنة وجمالها سكّانها المؤمنون الطاهرون. وثانيًا: أن آدم أخذ يزيل تأثير خدعة الشيطان من خلال ذريته الطيبة، حتى نجح في ذلك.

لقد ورد هذا الحدث في التوراة كالآتي:

"وكانت الحيةُ أحيَلَ جميعِ حيوانات البرية التي عملها الربُّ الإلهُ. فقالت للمرأة: أحقًّا قال الله: لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: مِن ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه، ولا تمسّاه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالمٌ أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارِفَين الخيرَ والشرَّ. فرأت المرأةُ أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهيّة للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلتْ، وأعطتْ رجُلَها أيضًا معها فأكل. فانفتحت أعينهما، وعلِما أنهما عريانان. فخاطا أوراقَ تِينٍ، وصنَعا لأنفسهما مآزِرَ" (التكوين ٣: ١-٧).

لقد استعملت التوراة هنا ورق التين بدلاً من ورق الجنة. فلنرَ الآن هل ورق التين وورق الجنة شيئان أم شيء واحد؟ ونرجع بهذا الصدد إلى علم تعبير الرؤيا حيث ورد: "التِّين في المنام يفسَّر بالصلحاء وأخيار الناس" (تعطير الأنام في تعبير المنام). وهذا هو معنى ورق الجنة أيضًا، فإن الورق هو النسل الطيب، والمراد من ورق الجنة الذرية الطيبة التي تصلح للجنة. فثبت أنه ليس ثمة اختلاف بين القرآن والتوراة بهذا الشأن، فإنهما متفقان على أن الشيطان لما خدع آدم شعر آدم بخطئه، فضم إليه جماعة المؤمنين وأفشل مكائد الشيطان. كان بنية الشيطان أن يهزم آدم بمكيدته، ولكن كيده أدى إلى صحوة جديدة في آدم بدلاً من أن يضره أو يفسده، فأخذ معه جماعة المؤمنين الطيبين وقضى على الفتنة التي أثارها الشيطان. حيث يقول الله تعالى ﴿ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدَى﴾.. أي أنه تعالى اختاره ونظر إليه نظرة رحمة، وهداه إلى التدبير السليم، فخيّب به آدم خطط الشيطان كلها.

هذا، وقد أساء الناس فهم قول الله تعالى ﴿إنّ لك ألا تجُوعَ فيها ولا تَعْرَى * وأنك لا تَظمَأ فيها ولا تَضحَى﴾، فظنوا أنه تعالى أسكن آدم في مكان لم يمسه فيه

جوع ولا عطش وما إلى ذلك (البغوي). ولكن هذا غلط، لأن آدم إذا كان لا يشعر بالجوع فلم قال الله تعالى لـــه ﴿وكُلا منها رغدًا حيث شئتما﴾(البقرة: ٣٦). فيصبح هذا القول الرباني عندئذ غير معقول تمامًا. فقوله تعالى ﴿كُلا﴾ يدل بوضوح أنهم كانوا يجوعون ويعطشون أيضا.

ولكن ماذا ستعني هذه الآية إذا؟

فاعلم أن مرحلة التطور الإنساني التي بدأت على يد آدم إنما كانت منحصرة في الرقي المدني فحسب، حيث أقام الله تعالى بواسطة آدم حكومة مدنية في العالم المعروف في تلك الحقبة الزمنية، وبيّن أن أهداف هذا النظام تتلخص كالآتي: أولاً: التعاون على تزويد الجميع بالطعام، ثانيًا: التعاون على إمداد الجميع بالماء، وثالثًا: التعاون على إمداد الجميع باللباس، ورابعًا: التعاون على إمداد الجميع بالسكن. وكأنهم سيتمتعون في ظل نظام هذه الحكومة التعاونية بأربعة مكاسب: الطعام والماء واللباس والسكن.

فقول الله تعالى ﴿إن لك ألا تَجوعَ فيها ولا تَعرَى * وأنك لا تَظمَأ فيها ولا تَضحى﴾ يبين صورة النظام الحكومي في مرحلة التطور المدني تلك، حيث قال الله تعالى لآدم إنه لو اعترض عليك الناس فقل لهم إن أول منافع هذه الحكومة المدنية أنكم لا تبقوا جائعين، بل إن الحكومة تكون مسؤولة عن طعام أهلها. والمنفعة الثانية في هذا النظام هي أنكم لن تعيشوا عراة، بل إن الحكومة ستكون مسؤولة عن لباسكم أيضًا. والمنفعة الثالثة أنكم لن تظلوا عطاشى، بل ستكون الحكومة مسؤولة عن إمدادكم بالماء. والمنفعة الرابعة أنكم لن تكونوا بدون مأوى ولا بيت، بل إن الحكومة ستهيئ لكم السكن أيضًا.

قصارى القول إن هذه الآية تبين تفاصيل ذلك النظام الجديد الذي أقيم على يد آدم عليه السلام، حيث بين الله تعالى المرافق التي تتيسر للذين سيعيشون تحت ذلك النظام الجديد.

قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٤﴾

شرح الكلمات:

اهبطا: هبَط الوادي: إذا نزَل به. وهبَط من موضع إلى موضع آخر: انتقل (كليات أبي البقاء). فقوله تعالى ﴿اهبطا﴾ يعني اذهبا من هنا.

التفسير: اعلم أن قوله تعالى ﴿اهبطا﴾ لا يعني آدم وحواء، لأن قبول هذا المعنى يعني أن آدم وحواء صارا عدوين، وهذا باطل بالبداهة. وإنما المراد من صيغة المثنى هذا فريقان: فريق آدم وفريق الشيطان. فقال الله تعالى للفريقين، اذهبا الآن من هنا، وسوف تبقى بينكم العداوة إلى الأبد. والدليل على ذلك هو لفظ ﴿جميعًا﴾ الذي لا يُستخدم لاثنين. فزِيد لفظ ﴿جميعًا﴾ هنا للإشارة إلى أن آدم كان لـــه أتباع، وأن الشيطان كان لـــه أيضًا أتباع، فقال الله تعالى للفريقين جميعًا اذهبا من هنا الآن.

ثم إن ضمير المخاطب للجمع في قوله تعالى ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أيضًا دليل آخر على ما أقول لأنه يُستعمل للثلاثة فصاعدًا. وهذا يدل على أن الذين أمروا بمغادرة ذلك المكان كانوا جماعة وليس فردين اثنين.

وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٦﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٨﴾

شرح الكلمات:

ضَنْكًا: الضنك: الضيِّقُ من كل شيء (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن للمنكرين عذابين: عذاب في الدنيا، وهو العيش المؤلم، وعذاب في الآخرة وهو أنهم يُحشرون يوم القيامة عميانًا حتى يصرخ كل واحد منهم ويقول: يا رب، كنت في الدنيا ذا بصيرة وفهم، فلم حشرتني الآن أعمى. فيرد الله عليه ويقول لقد كنتَ في الدنيا تعامل آياتي معاملة العميان، وكنت تتناساها، فكذلك اليوم قد صرتَ نسيًا منسيًّا. وكل من لم يؤمن بآيات ربه وتجاوز الحدود فنجزيه هذا الجزاء. أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى من الحشر أعمى.

ثمة إشكال في مفهوم هذه الآية يجب إزالته. وذلك أن هذا الكافر يقول هنا ﴿لِمَ حشَرتَني أعمى وقد كنتُ بصيرًا﴾، والله تعالى أيضًا يقول ﴿ونحشُره يوم القيامة أعمى﴾، وهذا يعني أن الكافر والله تعالى كلاهما يتحدثان عن عذاب الآخرة، لا عن عذاب الدنيا؛ ولكن الله تعالى يقول بعد ذلك ﴿ولَعذابُ الآخرة أشدُّ وأبقى﴾، فالكلام لا يبدو منسجمًا حيث يقول المرء في حيرة: ما دام العذاب الأول هو عذاب الآخرة فلم قال الله تعالى بعد ذلك ثانية ﴿ولَعذابُ الآخرة أشدُّ وأبقى﴾؟ وما هذا العذاب الأخروي الذي هو أشد وأبقى من العذاب الأول؟

والجواب أنه يتضح من القرآن والحديث أن "يوم الآخرة" فترة طويلة من الزمان يمر بها الكفار بأحوال شتى. قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ولقد جِئْتُمونا فُرادى كما خلَقْناكم أوّلَ مرة وتركتم ما خوّلْناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءَكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاءُ لقد تقطَّعَ بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعُمون﴾(الأنعام: ٩٥).

لقد تبين من هذه الآية أنه سيأتي في يوم الآخرة وقت تنقطع فيه كل صلة بين الكفار وآلهتهم تمامًا، وأنهم سينسون دعوى الشرك كلية.. بمعنى أنهم في الدنيا كانوا يصرون على ادعائهم بأن الأصنام التي يعبدونها هي شركاء مع الله تعالى حقًّا، وأنهم صادقون في دعواهم هذا، أي أنهم مقتنعون تمامًا من صدق دينهم؛ ولكن سيأتي عليهم يوم القيامة وقت ينسون فيه كل دعاويهم، وتغيب عن أذهانهم الأصنام التي كانوا يعبدونها، وينكرون ألوهيتها. وعندها سيقارنون بين حياتهم

الدنيوية وحياتهم الأخروية ويقولون ربنا ما الذي حصل؟ كنا مقتنعين تمامًا بأن أصنامنا آلهة، ولذلك كنا نؤمن بها، أما الآن فقد غابت عنا كل البراهين على كونها آلهة، ولا نرى منها شيئًا، وكأننا قد أصبحنا عميانًا تمامًا بالمقارنة لما كنا عليه في الدنيا.

وهذه الحالة هي الأخرى تكون نوعًا من العذاب، لأنهم سيدركون عندها أن ما كانوا يصدقونه في الدنيا كان باطلاً على الإطلاق، وهذا الإدراك في حد ذاته عذاب. وهذا بالضبط ما تشير إليه هذه الآية، حيث أخبر الله تعالى أن أول عذاب يلقاه الكافرون هو إيقانهم أن الأشياء التي كانوا يشركونها بالله تعالى ليست بآلهة، وكذلك إدراكهم أن بصيرتهم الروحانية قد صارت مطموسة حيث لا يرون شركاءهم آلهة في الواقع. يقول الله تعالى إن عذاب الضمير هذا لعذاب شديد في حد ذاته، ولا سيما حين يدركون بطلان ما كانوا يعتقدون به في الدنيا، فيقولون في حيرة كيف صدّقنا هذا الأمر الباطل؟

ثم بعد ذلك يقول الله تعالى إن هذا العذاب ليس بشيء، إنما العذاب الحقيقي ما يليه وهو عذاب جهنم. لا شك أن عذاب الضمير هذا سيبعثهم على القلق والشعور بأنهم قد أصيبوا بالعمى الآن وقد كانوا يبصرون من قبل، ولكن الحق أنهم كانوا عميانًا من قبل، وقد أبصروا الآن؛ وعندما يحل بهم العذاب بحسب إدراكهم هذا فسيعملون أنهم كانوا عميانًا في الدنيا حيث يرون الخطأ صوابًا، وقد بدأوا يبصرون الآن حيث يرون الصواب صوابًا.

فالواقع أن هذه الآيات نوع من الطعن والتعيير بعقيدة الكفار، حيث قيل إن هؤلاء الأغبياء أشركوا بالله تعالى ومع ذلك ظنوا أنفسهم من أهل البصيرة، ولكنهم سينكرون شركهم ويتساءلون في حيرة هل أصبحنا الآن عميانًا أم كنا عميانًا من قبل؟ هل بلغ بنا الغباء لدرجة أننا ظننا أنفسنا ذوي البصيرة وقد كنا عميانًا؟

وهناك إشكال آخر لا بد من حله وهو أن الله تعالى يقول هنا ﴿ومَن أعرضَ عن ذكري فإنّ لـــه معيشةً ضنكًا﴾.. أي أن الذي يُعرض عن ذكر الله تعالى لا بد لـــه من عيش الضيق والمشقة؛ ولكن ما نشاهده هو أن أهل الأديان الأخرى ليسوا

في أي ضيق مالي، بل إن أغلبهم أحسن معيشة بكثير من المسلمين، حيث تيسرت لـــهم أسباب الراحة والرخاء بكل أنواعها!

وليكن معلومًا أن المعيشة تعني ما به قوام الحياة الإنسانية (الأقرب)، والحياة الإنسانية لا تقوم بالأكل والشرب والمال والثراء فقط، بل هناك مئات الأشياء التي لا بد منها لإصلاح حياة الإنسان دينيًّا وحضاريًّا وروحانيًّا. وهذه هي الأشياء التي لا تتيسر لمن يعرض عن المنهج الإلهي، مما يضيّق عليه عيشه جدًّا.

الحق أن سعة العمل إنما تتيسر للإنسان بإيمانه بصفات الله تعالى وإحداث التغيير في نفسه بحسبها، أما الذي لا يؤمن بصفات الله تعالى فإن نطاق عمله يظل ضيقًا محدودًا جدًّا. إن دائرة عمل الإنسان تتسع دائمًا إذا كانت الغاية سامية، وإذا لم تكن لأحد غاية عالية ضاقت دائرة عمله. ومن أجل ذلك نجد أن أخلاق الفلاسفة تكون رديئة جدًّا مقارنة بأخلاق الأنبياء. ثم إن دائرة ما عندهم من أخلاق قليلة أيضًا تكون ضيقة للغاية. خذ مثلاً النبي ﷺ، حيث تجده متخلقًا بجميع الأخلاق الفاضلة وفي أروع صورة. فتجده ﷺ ذروة في الصدق، والأمانة، والسخاء، والرحمة، ورعاية الفقراء، والإنصاف، والتوكل، ورحابة الصدر، والحلم، واحترام مشاعر الآخرين، وحسن معاشرة النساء، وخدمة الإنسانية، والصبر، والتسامح، والتعاون، والشجاعة، والوفاء بالعهد وآلاف غيرها من الأخلاق الحسنة. ولكنك لن تجد أيًّا من الفلاسفة جامعًا للأخلاق الفاضلة كلها، بل ستجد بعضهم متحلّيًا بواحد أو اثنين من هذه الأخلاق، وفي نطاق محدود جدّا. إنما سبب ذلك أن الإنسان إذا لم يكن لـــه غاية سامية يصبو إليها، وإذا لم يكن أمامه أسوة حسنة كاملة يتأسى بها، فتبقى أعماله محصورة في دائرة ضيقة، ولا يمكن أن تتسع. وبما أن منكر الوحي الإلهي لا يسعى للتحلي بالصفات الإلهية نتيجة إعراضه عن الله تعالى، فإنه لن يقدر على معرفة صفات الله تعالى حين ظهورها يوم القيامة، بل سيقف إزاءها كالعميان؛ مثله كمثل الذي لم ير في حياتـــه البطيـــخ قط، فإذا وضعتَ أمامه البطيخ لن يعرف أنه بطيخ. فسيقول يوم القيامة مذعورًا: لِم بُعثتُ اليوم أعمى وقد كنت بصيرًا؟ فيقول الله لـــه ﴿كذلك أتتك آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليوم

تُنسى﴾.. أي لقد أريناك في الدنيا عشرات الآيات والمعجزات على يد رسلنا، فلم تكترث. فلِم أنكرتها إذا كنت بصيرًا؟ فبما أنك كنت أعمى فكذلك اليوم تُحشر أعمى.

لقد تبين من ذلك أن العمى الذي يكون في الآخرة إنما هو العمى الروحاني. ذلك أن الله تعالى يقول لهذا: فكما أنك لا تقدر على رؤية الأمور الروحانية الآن كذلك لم تقدر على رؤيتها في الدنيا. ولو لم يكن المراد هنا العمى الروحاني لما قال الله تعالى ﴿كذلك أتتك آياتنا﴾. إن ورود ﴿كذلك﴾ للمرة الثانية يعني أننا قد تخلينا عنك في الدنيا بسبب أعمالك، وها قد تخلينا عنك الآن أيضًا، و لم نعدّك من أهل البصيرة قط.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٩﴾

التفسير: أي أن التاريخ شاهد على الأمم الخالية، التي يسكن الكفار في ديارها ومناطقها. فكانت هي الأخرى مشركة وثنية، فهلكت في آخر الأمر؛ فلمَ لا يتعظ هؤلاء القوم بمصيرها؟

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٣٠﴾

التفسير: أما قوله تعالى ﴿ولولا كلمةٌ سبَقتْ من ربك﴾ فإشارة إلى القانون الإلهي المذكور في قوله ﴿ورحمتي وسِعتْ كلَّ شيء﴾(الأعراف: ١٥٧).. والمراد أننا قد قررنا أن رحمتنا غالبة على بطشنا، ولولا ذلك لجاءهم العذاب من دون تأخير جراء معاصيهم، ولصار ملازمًا لبلدهم لمدة طويلة، ثم لم يكن لهم مَخلص منه.

فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾

التفسير: قال المفسرون إن التسبيح ﴿قبلَ طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ هنا يعني صلاتي الفجر والعصر، أما ﴿ومن آناء الّيل﴾ فإشارة إلى المغرب والعشاء، وأما ﴿أطراف النهار﴾ فهما صلاتا الظهر والضحى لكونهما على طرفي نصف النهار، إحداهما قبل زوال الشمس والأخرى بعد زوالها، أو المراد به الظهر فقط (الدر المنثور).

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾

شرح الكلمات:

زهرة الحياة الدنيا: أي بهجتها وغضارتها وحسنها (الأقرب).

لنفتنهم: فتَنه: خبَره. فتَن الصائغُ الذهبَ والفضّة: أذابه بالبوتقة وأحرقَه بالنار ليبين الجيدُ من الرديء ويُعلَم أنه خالص أو مشُوب (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى (لِنَفْتِنَهم) ١- لنعلم، ٢- لنميز بين الجيّد والرديء.

التفسير: يصاب الإنسان أحيانًا بالطمع برؤية ما عند الآخر من الثروة والمال ويتمنى أن تنتقل إليه. ولكن الله تعالى يحذّر المسلمين هنا ألا يصيبهم الطمع برؤية تقدم الشعوب الأوروبية وثرائها المتراكم الهائل، لأن ثراءها نفسه سيتسبب في هلاكها في نهاية المطاف، كما حصل مع روسيا. فإنها لما رأت ثراء الأوروبيين والأمريكان تحلَّبَ فمُها، وصنعت القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية لتستولي بقوتهما على ثراء البلاد الغربية. ولكن الله تعالى ينصح المسلمين أن يجمعوا ثروتهم عند الله تعالى، لأن المال الذي يُكتر عنده ﷻ مصون من سلب السالبين، كما أنه خير ويدوم للأبد.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الأولاد يتبعون خطوات الوالدين، فعلى على كل مسلم في عصر رقي المسيحيين أن يوصي أولاده بالصلاة وأن يواظب بنفسه عليها لكي يتأسوا بأسوته. ذلك أن الذي يداوم على العبادة يرزقه الله حلالاً ولا يسأله رزقًا.

وهذا يبدو غلطًا في بادي الرأي، إذ لم يزل الأنبياء جميعًا يطالبون الناس بالتبرعات لنشر الدين، وإن الإسلام نفسه قد حث على أداء الزكاة والصدقات بشكل خاص. والحق أن الذين يخرجون الزكاة أو الصدقات لا تنقص أموالهم أبدًا بل تزيد دائمًا، وهم الذين ينتفعون بهذا الإنفاق. يقول الله تعالى ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجهَ الله فأولئك هم المُضعفون﴾(الروم: ٤٠).. أي أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله هم الذين يزيدون أموالهم في الواقع. فثبت أن الزكاة والصدقات والتبرعات لا تتنافى مع مفهوم هذه الآية أبدًا.

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾

التفسير: إن الله تعالى يبين هنا أن الآية لا تعني سحرًا وشعوذة، بل الواقع أن أنباء الأنبياء السابقين أيضًا آيةٌ، وهناك أنباء من قِبل الأنبياء السابقين في حق محمد رسول الله ﷺ، فلم لا يصدّق به هؤلاء رغم وجود هذه الآية؟ فلو لم يُبعث محمد رسول الله ﷺ لجاز لهم أن يقولوا إنه لم يُبعث إليهم أحد وإلا لآمنّا به. أَمَا وقد جاءهم النبي فليس لهم إلا أن ينتظروا العقاب. وسوف ينكشف الحق في آخر الأمر، ولكن لا جدوى من الإيمان عندها.

وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٥﴾

التفسير: لقد لفت الله تعالى هنا نظر عباده أنه لو أنزل عليهم العذاب قبل بعثة رسول بينهم لاحتجوا أمامه تعالى بأننا كنا في ضلال وبحاجة إلى الهدى، فلم لم تبعث إلينا رسولاً، فنعمل بوصاياك قبل أن نذل ونخزى؟ ولم يُبطِل اللهُ تعالى اعتراضهم هذا، بل سلم بصوابه. مما يبين أنه تعالى لو لم يبعث الأنبياء والرسل لهداية الناس لكان من حقهم أن يحتجوا عليه تعالى يوم القيامة قائلين: إنك لم تبعث إلينا أي هادٍ فلِم تحاسبنا يا رب؟

من المؤسف أنه حتى معظم المسلمين بدأوا يقولون في هذا العصر لن يبعث الله أحدًا لإصلاح العباد مهما انتشر الغي والضلال في الدنيا. في حين أن الله تعالى قد أبطل هذا الزعم نفسه في هذه الآية، وبين أنه تعالى لو لم يبعث رسله إلى الدنيا لجاز للعباد أن يحاجّوه قائلين يا رب إنك لم تهيئ لنا أسباب الهداية فلم تعذبنا إذن؟ وهذا يعني أن المسلمين اليوم يدعمون عمَليًّا ذلك الاعتراضَ الذي لم يزل الأنبياء يُبعثون كيلا يثار هذا الاعتراض.

قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٦﴾

التفسير: لقد وصف الله تعالى الصراط هنا أنه سويّ. والسوي هو المصون من الإفراط والتفريط (المفردات). والسويّ أيضًا الكامل القوي (لسان العرب). وعليه فقوله ﴿فستعلمون مَن أصحاب الصراط السويّ﴾ يعني أنكم ستدركون عاجلاً أن ما جاء به محمد رسول الله ﷺ من منهج للناس هو منـــزه عن أي إفراط وتفريط، وأنه يبلغ من الكمال والشمول بحيث لن يصبح متروكًا أبدًا مهما تغيرت أحوال الزمن وظروفه.. بمعنى أنه دستور أبدي وغير متبدل.

ثم يقول الله تعالى ﴿ومَن اهتدى﴾.. أي أن الذي يُعطى شرعًا غيرَ قابل للنسخ أو التبدل بتأثير ظروف الزمان إنما هو وأتباعه يمكن أن يُعَدّوا من المهتدين الكاملين، أما الذين لا يتبعونه فلا يمكن أن يُعَدّوا من المهتدين أبدًا. ذلك لأن الذي يضطر لتغيير إيمانه وعمله دائمًا بتغير أحوال الزمن لا يمكن أن يُعَدّ من الذين قد هداهم الله تعالى، لأن هدى الله إنما هو ما يكون صالحًا للعمل به اللهم إلا أن يغيره الله تعالى بنفسه في عصر من العصور من خلال وحي جديد منه تعالى. أما الإنسان فلا يمكنه أبدًا أن يبدله لأنه غير قادر على أن يأتي ببديل للتعليم الإلهي.